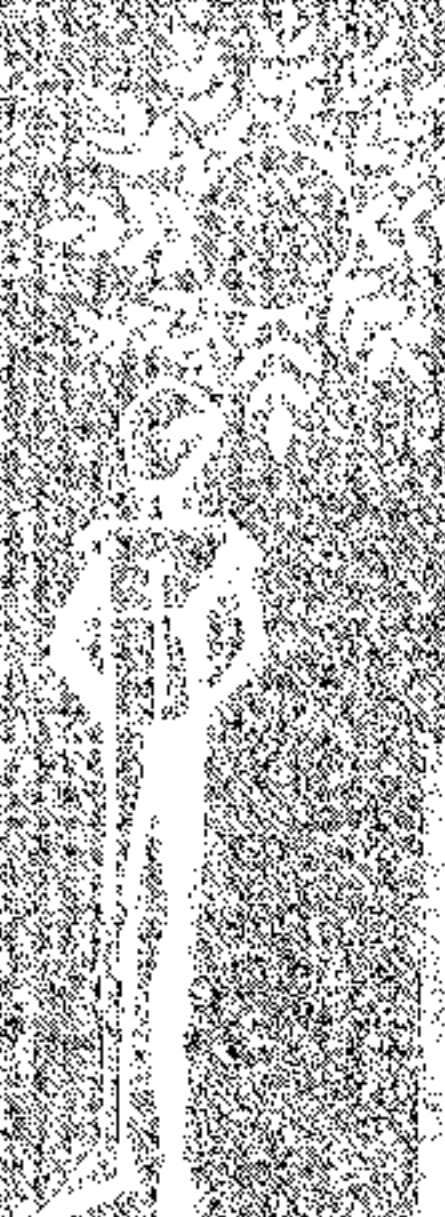


من الشرق والعمارة



# إنسان السد البلد

صنع الله إبراهيم  
كمال المتكلمين  
رؤوف ممدوح







من الشرق والغرب

إِنشَاء  
السُّد  
العَالِي

صنَّعَ السُّدَّ اِبْرَاهِيمُ • كَمَالَ الْقَاشِ • رُوِّفَ مَسْعَدٌ



الله الله .. هيللا هيللا ..  
ياواقف تحت الشمس عشان الحفنة تصير كيلة  
الله الله .. هيللا هوبه  
يا طابع ابدك فوق بواية الشمس الخضرا أماني ومجبة  
اعمللي من الحبة قبة  
واعمللي من جيل الراحة مليون عيلة  
الله الله .. يا حليلة .  
الجبل الشق وطق وياقفل باب همي  
واخواني مع صحابي خيلاني جيرانى عماني ولاد عمي  
بيعللوا الصدر الاسوانلي  
وبرشوا تحتة الصليلة  
قول للدكتور  
اللى بيفز الابرة ف لحم دراعى من غير مايسمى  
انا حاسس ان دراع السد ..  
محتاج لشوية من دمي .

من قصيدة « أغنية للسسد »

للشاعر عبد الرحمن الأبنودى



## أصبح كتاب في العالم

انه حلم قديم .. حلم الكتابة عن السد ..

فكيف يمكن لابن مصر الإستراتيجية ان يغمس  
قلمه في المداد دون ان يدشنه اولا بهرم العصر ؟

ذلك ان الهرم الحديد ، الذي يرتفع عاليا ، يوما  
بعد يوم ، هناك عند اسوان ، قد غدا رمزا على معركة  
افريقيا ضد الاستعمار ومن اجل البقاء ، ورمزا على  
التعاون المخلص بين الشعوب وعلى الصداقة الامة  
ورمزا لغد الوفرة الذي تتطلع اليه الملايين ..

والاحلام لاتنطق بسهولة ..

وهكذا كان لابد ان تمضي سنوات قبل ان تنجح

لنا الفرصة اخيرا ..

ولكننا احسبنا هناك فوق السد ، بعد فترة  
من الوقت ، انه من المستحيل ان نكتب كتابا عن السد  
فكل ما سنكتبه بعد يوم او يومين او على الاكثر شهر  
سيصبح قديما ، وسيصبح الكتاب تاريخا ماضيا ..  
لان السد يتغير كل يوم ..

نزور الأنفاق مثلا ، ونعيش فيها يوما او يومين  
.. ونكتب ثم نعود بعد عشرة ايام لنجد كل ما كتبناه  
غير موجود ..

كنا سعداء بانفاق التفتيش لاننا وجدنا شيئا  
في بدايته ، لحقنا الحراسانة وهي تصب ، وعندما  
عدنا اليها في نهاية الشهور الثلاثة وجدناها قد اختلفت  
غطوها بالطمى ، ودكتها البلوزرات •

وقال لنا احد المهندسين .. انتم تكتبون اليوم  
عن الموجودين ، عن الذين ترونهم ، ولكنكم لم تروا  
اناسا كان لهم دور جبار ورائع وتركوا السد .. الذين  
بنوا البدايات الشاقة اغلبهم ذهب .. وعندما  
ستاتون في عام ١٩٦٩ مثلا ، ربما لن تجدوا اقلب من  
رايتموهم هذا العام ، سترون اناسا جندا ، فماذا  
ستفعلون ؟ هل ستضعون كتابا كل شهرين ؟••

شعرنا وكاننا نواجه نهرا جاريا متدفقا ، لا يمكن  
تركيز النظر على موجة واحدة من موجاته ووصفها  
لنعبير بها عن النهر •• والناس تتغير ، تولد وتعيش ،  
وتعمل هنا وهناك وتهدت ، ومن المستحيل علينا ان  
نحصر كل الموجات او ان نوقف جريان النهر لنكتب



في الشهر الأول رحبوا بنا ، وكانوا يعاملوننا  
كفاكهة نادرة ظهرت في غير اوانها •• فالزوار الذين  
يريدون الكتابة يذهبون عادة في الشتاء ليستمتعوا  
برحلة طيبة الى شمس اسوان وكتاراكت ، ولكننا  
ذهبنا في الصيف ، وكان احد الأسباب ان « صنع الله »  
صمم على مشاهدة آخر فيضان سيصل مصر ••  
وصمم على ان يرى العمل في ذروة الاجهاد والحرارة  
« والا فكيف سنكتب ا » •

وهكذا ذهبنا في يونيو ، وعشنا على الشاطئ  
المتهب ، واسوان تغلى • وجرى «صنع الله» مع النيل  
في مركب الى الشمال • الى « ابو سمبل » وظل يلهث  
هنا وهناك بحجمه النحيف الذي يكاد يلوى وحده ••

وفي الشهر الثاني اشتدت موجة الحرارة ،



للرجة أن بدأ الناس يتساقطون .. وفكرنا لحظة أن  
نجمع ملابسنا ونعزم حقائبنا ونعود في وقت مناسب  
أكثر .. ونحن نفكر ونتردد ، هكذا سقط رءوف  
مريضا بنفس الامراض المميتة ، الحرارة المرتفعة  
والاحتقان ونويان الجسم . ونقل الى المستشفى ،  
وكانت المستشفى مجرد مرحلة شكلية ، فبعدها  
بسلعات يحين الاجل . وواجهنا كارثة حقيقية : ماذا  
نفعل ؟ وسهرنا طول الليل بجسواره . وامتد الامر  
لاكثر من ليلة . ولم نتحدث لا في سفر ولا في اقامة ،  
فنحن نرتب شحن جثة ، ونفكر في والدته المريضة  
واخيه واهله كيف سنسناوهم وكاننا نحن الذين  
فتلناه . واجتاز رءوف المحنة رحمة بنا ، وكان  
طبيعي ان تلحق انفسنا ونرحل ، وكانت الكلمة النهائية  
والحاسمة على اية حال لرءوف نفسه ، وقال اننا  
لم نر بعد اجزاء من السد يجب أن نراها والا فكيف  
نكتب عن السد ؟

وواصلنا ..

وفي الشهر الثالث قال لنا العمال والمهندسون  
انتم أصبحتم تعرفون السد اكثر منا ، مثلا انا الذي  
اعمل في الحجر أو الانفاق ، لا ارى غير الجزء الذي  
اعمل فيه ، ولا ارى الصورة كلها ، لا ارى الموقع كله  
ابدا ، بل كل مرة افاجأ وانا في طريقى الى عملي بتغيرات  
لم الحظ ابدا بديتها .. ولكنكم انتم رايتم كل الأماكن  
.. كل موقع من المواقع .. نريد أن نرى ما استكتبونه  
ونقرؤه ، لنعرف كل شيء عن السد .. !

أليست مهمة صعبة أن نكتب ويفرأ لنا حتى  
الذين يعيشون السد نفسه .. أليس كتابا صعبا  
ورهيبا ؟!



وعندما عدنا واجهنا أصعب مشكلة ، مئات  
القصاصات معنا ، مئات من الصفحات ، ما الذي نكتبه  
وما الذي نتركه ؟ وكل ما معنا تغير .. والناس ..

كيف نختر ٠٠ وعلى أي أساس ٠٠ وهل نحن حقا  
- بيني وبينك - نعرف شيئا يستحق الكتابة عن  
السد ؟

لقد عرفنا بأيدينا ملء قبضة من الناس وفرزناهم  
وكتبنا عنهم وعن حياتهم ٠٠ ولكن ٠٠ هل هؤلاء فقط  
الذين ستجدهم هنا في هذا الكتاب هم رجال السد ؟  
مستحيل طبعا ، هل هؤلاء هم العصب الرئيسي للسد ،  
قطعا نحن لانعرف ٠٠ وانما نحن نقدم رمزا ما للعمل  
٠٠ عدد من الناس ليسوا هم ابرزهم ولا احسنهم  
ولا اعظمهم ، فقط الذين تصادف وقابلناهم ، الذين  
استوقفناهم واستوقفونا .

مشكلة اخرى ٠٠ كيف يكتب ثلاثة عملا واحدا ؟  
فهي اول تجربة لنا أن نشترك معا ونتفرج معا ونعيش  
معا ونكتب معا . وقد كانت تجربة جميلة أحيانا  
وكانت في احيان اخرى محنة لا يمكن ان يتصورها  
أحد ! احد عاقل .

\*\*\*

وأخيرا اعترف واقول ان هذا الكتاب ليس كتابا  
عن السد العالي ٠٠ لان كتابة كتاب عن السد العالي  
في رأيي أمر مستحيل ، وليس صورة للسد العالي ،  
وانما هو بالضبط صفحات تصادف أن كتبناها بين  
يونيو ١٩٦٥ ، سبتمبر سنة ١٩٦٥ .

ونحن ننتهي من هذا الكتاب ، نشعر برغم  
التعب التي صادفناها ، وعرفلنا طويلا ، وبرغم  
الجهود التي بذلناها أحيانا وضاعت هباء ٠٠ نشعر  
أننا قد عشنا أروع أيام حياتنا ، أروع تجاربنا بين  
يونيو وسبتمبر ١٩٦٥ ، واننا نحلم من جديد  
ان نعيش ولو اياما قليلة لنرى السد في عام آخر ٠٠  
ولنغتسل في رحابه ونعيش على ضفافه معركة ،  
معركة الإنسان المصري البسيط الذي يبني ولا يتأمل  
٠٠ وينحت الصخر ، ويهزم الجبل ، ويهد الدنيا .  
ويبنى عصرا جديدا لمصر جديدة ، تحت لواء زعامة  
رائعة وعبقرية ٠٠ كمال القاش

# السوفت





للهة الأولى يبدو لك أنك في مكان مالوف .. مثل بقية المدن الصغيرة المتناثرة على طول الشريط الأخضر ، في الجنوب وفي الشمال .. فهاهو المنطور خارج المحطة يعمل بهمة مزودا ببوق جلدى كبير . ومستلمح عينك زحام المدن الصغيرة . بل وبوادر شبكة من الحواري الضيقة الى اليسار مباشرة تطل عليها مبان قديمة متلاصقة . ولكنك ستفتح عينيك جيدا عندما تتحول الى اليمين لترى وجه اسوان الجديد .

عشرات من سيارات الأوتوبيس الضخمة تنتظر . والى جوارها لوحتان احدهما بالعربية والأخرى بلغة غريبة ستظنها الهيروغليفية حتى تقع عينك على الوجوه البيضاء ، والشعر الأصفر ، والأجسام الضخمة فتتذكر وتقول : آه .. الروسية .

ومن المحطة يمتد طريق واحد رئيسى على النيل يسير فيه الجميع .. الناس وسيارات الاجرة والحميز وسيارات صمغية تحمل لافتات تعلن انتماءها للسيد العالى او القطاع العام او الحكومة . ليس بينها سيارة خاصة واحدة .. ثم سيارات الأوتوبيس الضخمة ، العربية والانجليزية والتشيكية . بالوان متعددة تعين وظيفتها وخط سيرها .. الخضراء والحمرات تعمل بين أسوان والمدن المجاورة ، وهى سيارات أوتوبيس حقيقية بمعنى انه لا بد من دفع ثمن التذكرة .. أما بقية السيارات الصفراء والرمادية والزرقاء فهى تقوم على خدمة العاملين وعائلاتهم فى السد العالى والأسمنت والمقاولين العرب وكيميا والحديد والصلب .. مجاناً .

وفى طريق النيل تنطلق هذه السيارات أمام صف طويل من المباني الضخمة الجديدة .. عمارات سكنية .. السوق السياحى .. محلات ضخمة حديثة تابعة للقطاع الحسام .. دار الثقافة والمكتبة .. فنادق ضخمة كاحدث الفنادق العالمية .

طريق النيل ضيق .. النيل على اليمين .. وعلى اليسار شريط المباني الجديدة .. وخلفه المباني القديمة فى حوض جبل .. المكان كله مكس .. يدور فيه صراع رهيب . كل يحاول ان ينال من الآخر ..

النيل الهادئ سيموج بالحركة بعد شهر وعندما تصله امدادات المياه الحمراء من الحبشة سيهاجم المدينة ويحاول ان ينال من ارضها . .  
والمدينة القديمة تكاد تنفجر من الزحام ولا تعرف اين تزحف . . وعندما ترى مكاتب المحامين في الطريق مباشرة بجوار محلات البقالة والمطاعم يخيل اليك ان المدينة القديمة تريد ان تنال من هذا الطريق الضيق وتزحف اليه . . . وبين الانين - النيل والمدينة القديمة - يمتد شريط المباني الحديثة يحاول ان يشق لنفسه طريقا بينهما ، وفي البداية لن تستطيع ان تخمن نتيجة المعركة ، حتى ترى بعد قليل بوادر مشروع الكورنيش الجديد الذي ستزحف به رقعة الارض داخل النيل .

\*\*\*

الفنادق الضخمة التي رايناها كلها مغلقة . . والسبب اننا في الصيف ، وهذه الفنادق من فنادق الدرجة الأولى التي تعتمد على أعلى طبقات السياح ، ومعظمهم في ارضل العمر يبحثون اساسا عن الصحة ، والعلاج في أسوان له موسم محدد هو أشهر الشتاء .  
ولكن أسوان تزدهم بالأجانب في يوليو . انك تلتقي بالوجوه الأوروبية في كل مكان . ولسنا نقصد الروس . فانت بعد دقائق من وصولك الى المدينة ستعرف كيف تميز الروسي عن غيرهم من أبناء أوروبا . فهم أولا يمتازون بالاجسام المثينة . وبالأنافة . الرجال يرتدون قمصانا مشجرة وبنطلونات على أحدث مودة وأحذية مدببة . والنساء في الصباح يحملن سلالا كبيرة تزدهم بمسترياتهن من السوق . . ارلهذا فهن لسن بالقطع سائحات .

فالمرء هنا يتدرب على تمييز السياح الاجانب من هينتهم وملابسهم . .  
فغالبية سياح هذه الفترة من السنة هم شبان جاءوا مشيا على الاقدام . أو في سيارات صغيرة أو على دراجات بخارية ونراهم بالقمصان والبنطلونات القصيرة وغالبا تكون ذقونهم طويلة وملابسهم مهملة وهم شباب بعيون ذكية تتطلع في كل اتجاه وتبدو فيها حمى غريبة . تدفعهم في جميع أنحاء العالم دون أن تكون لديهم موارد كافية . وهم يتجهون على الفور الى بيت الشباب المجاور للمحطة حيث يقضون اياما بتررس معدودة ثم ينطلقون بالنهار في كل مكان وينهبون اى السد . ويعودون مبهورين ليجلسوا على المقاهى البلدية . وفي حرارة الظهر يتمددون في الحدائق العامة دائخين .

على أن هناك فئة أخرى من السياح ، وسط بين أثرياء الشتاء اذ



مرضاد . . وشباب الصيف أو افاقية . وهم يأتون في الرحلات الجماعية .  
التي تنظمها مكاتب السياحة في جميع أنحاء العالم أو يأتون فرادى في هذا  
الوقت بالذات ليستفيدوا من اسعار الصيف المنخفضة . وهؤلاء لن يجدوا  
الا مكانا واحدا في استقبالهم هو فندق قديم بعض حجراته مكيفة الهواء  
ومعظم أسرته قديمة ذات عواميد وناموسية . واسمه جراند أوتيل . .

ولهذا فالحياة في جراند أوتيل تجرى بطريقة غريبة . . الناس  
نلتقى للحظات ثم تفترق الى الابد . . عشرات الغرف تمتلئ وتفرغ بعد  
ليلة . عشرات الوجوه تظهر في الشرفات وفي البهو مرة واحدة ثم  
تختفى . . ليلة تمتلئ صالة الطعام عن آخرها وليلة اخرى لا تجد بها  
أحدا .

ووجوه زوار بلادنا وزائراتها متوردة من الانفعال . هل السبب هو  
نشوة رؤية مكان جديد ، أو هو حر أسوان الذي يؤجج المشاعر ؟!

### \*\*\*

أمام جراند أوتيل قوارب تحملك الى الضفة الأخرى ، ويتوقف بك  
القارب وسط النهر على شاطئ جزيرة طويلة رفيعة اسمها « الفننين » .  
هي أقدم الأماكن في أسوان ، وكان الفراعنة يسمونها «جيب» وهي كلمة  
هبروغليفية معناها « الفيل » ولعل السبب في هذا الاسم الصخور القائمة  
وسط النهر امامها التي تشبه الفيلة السابحة . وفي أحيان كثيرة كانت  
هذه الجزيرة هي النقطة التي تعين حدود مصر أيام الفراعنة .

وفي هذه الجزيرة متحف صغير من أربع غرف . . تتصدره تماثيل  
اله قديم تجسد في صورة خروف . . وفي الحوامل الزجاجية مجموعة من  
الأدوات القديمة بها تماثيل صغيرة جدا توضع مع الميت لتنوب عنه في  
أداء الأعمال الشاقة في الحياة الأخرى .

ويقول لك الجميع : يجب أن ترى قبر اغاخان الذي يرتفع عاليا على  
الناحية الأخرى من النيل . وتصعد اليه في طريق طويل يمتد كيلومترين .  
تطل منه على أروع منظر يمكن أن تقع عليه عين . . قط لم تجتمع من قبل  
في أي لوحة أو منظر هذه الألوان التي تراها من هنا . بعيدا الى اليسار  
سلسلة من الجبال الحمراء الداكنة . ( بسبب مناجم الحديد ) . . امامها  
على الناحية الأخرى التي يقع عليها قبر الاغا ، جبال رملية صفراء . .  
وبجوار الجبال عمارات بيضاء جديدة . . ثم فندق رائع بواجهة صفراء  
لامعة . . وتحته يربض قصر البيجوم الناصع البياض بنوافذه الخضراء

.. تليها في النيل الصخور الجرانيتية السوداء الضخمة .. تم فندق  
كثراكت بواجهته البنية : حيث كان الملك السابق فاروق يحتفظ بجناح  
خاص فيه ..

ويحملنا القارب من جديد الى جزيرة النباتات .. وفي القارب فتاة  
فرنسية معها كتاب سياحي شهير هو « المرشد الأزرق » .. والكتاب آخر  
طبعة وتاريخها سنة ١٩٥٦ . ويقول الكتاب ان عدد السكان في أسوان  
٣٥ ألف نسمة وان ثلاثة أيام تكفى لزيارتها هي وضواحيها . يوم  
للطواف بالمدينة والسوق ، ويوم للخزان ، ويوم لجزيرة الفنتين .

ونحن نكتب هذا الكلام بعد أن قضينا في أسوان وضواحيها  
« ثلاثة شهور كاملة » لم تكن كافية كي نرى كل شيء .

والكتاب الفرنسى لم يذكر بالطبع شيئا عن السد .. ودهشنا عندما  
وجدناه يتحدث عن زيارة حديقة كشمس .. واكتشفنا أنه يقصد حديقة  
النباتات الاستوائية . التي كانت تحمل في الماضى اسم القائد البريطانى  
الذى قاد الجيش المصرى وغزا السودان .

كم يبدو هذا التاريخ غريبا اليوم !؟

ويحملنا القارب مرة أخرى الى تلك العيون الغامضة في الجبل انى  
تراها من كل مكان في أسوان وترى السلم الطويل المؤدى اليها ..  
وصعدنا طويلا وسط الرمال .. ان العيون الغامضة مقابر نبلاء وامراء  
عاشوا هنا خلال المملكة القديمة .. المقابر ضيقة ومظلمة .. جدرانها ملونة  
بالسواد من اثر محاولات الرومان احراق المعابد والمقابر .. وعلى الحائط  
بقايا نقوش رائعة تروى أربع رحلات للأمر حرخوف الى بلاد النوبة وكيف  
عاد في الرحلة الرابعة بقزم مرح ليرقص أمام الملك الطفل بيبي الثانى .  
وعندما علم الملك الطفل بأمر القزم كتب الى حرخوف قائلا :

« توغب جلالتي فى امتلاك هذا القزم اكثر من جزية بلاد بنت واذا  
أحضرتة الى القصر سلينا فسيجزيك جلالتي خيرا .. » وبلغ اعتزاز  
حرخوف بهذه الرسالة انه أمر بنقشها على جدران قبره حرقا حرقا ..  
فسجل بذلك اول رحلة استكشافية الى السودان .

الرائحة العفنة في المقابر لا تجعلك تطيق الوقوف أكثر من دقائق ..  
وتسرع الى الخارج .. ولا تدري أتهرب من العفونة .. أم تهرب من التاريخ  
لقد كان أصحاب هذه المقابر من الملوك والاشراف .. يلبسون الميت منهم

التاج والحل والسلاح ويزودونه بالطعام والشراب بينما يشنق عبيده  
أنفسهم ويرقدون تحت أقدامه ليكونوا في خدمته في حياته الأخرى ١٠٠!

\*\*\*

خطوة بعد خطوة ٠٠ الشمس تختفى ٠٠ والقارب يتجه الى أسوان ٠٠  
وتظهر أنوار المدينة من بعيد ٠٠ ويمر القارب بالفيلة الرابضة في الماء  
فيمشى ببطء وخذر ويكاد يقف ٠٠ والسكون شامل ٠٠ وتتطلع الى سماء  
بدأت تتلون بالحمرة فوق الجبل ٠٠ وتفتح صدرك لتستنشق الهواء  
النقي الجفاف .

ونعود الى المدينة ٠٠ الى الأنوار في كل مكان ٠٠ ونغادر القارب  
الى الرصيف وسرعان ما نضيق في جموع الزحام الذي تتخلله مجموعات  
من السيدات الروسيات ينتظرن الأوتوبيسات لتحملهن الى مساكنهن في  
المنشآت السكنية العديدة بالسد وقد أتمن جولتهن اليومية في السوق  
وملاذ سلالهن بكل السلع .

ان أعماق المدينة لم تتغير منذ أيام الفراعنة . لقد كانت تسمى  
أيامها « سوانت » ٠٠ ومعنى الكلمة الهيروغليفية هو « السوق » !

\*\*\*

وحينما يذوب العائدون في شوارع أسوان الغفيرة ودروبها الضيقة  
الملتوية توضع أسوان رأسها فوق ذراعها الجرائيتي وتنام كأنها لم يكن شيء  
يستحق أن يصحو من أجله الانسان .

ان أسوان لا تعرف السهر ٠٠ وليلها هاديء صامت ٠٠ يتمدد فيه  
الرجال فوق الحشائش أو المقاعد الحجرية على النيل ٠٠ ويسير الشبان في  
هدوء وحزن في شوارع معسكر الذكور الكبير .

وفي البداية كنا نتصور ان الآلات والعمل والانشاءات والخبرة  
الجديدة قد نجحت في ان تغير اعماق هذا المكان النائي من البلاد ٠٠ ولكن  
المدينة الجرائيتية السمراء اثبتت انها - الى الآن - اقوى من كل آلة .

ان شباب أسوان الأسمر ، شباب من لحم ودم المدينة الصامته ٠٠  
انه شباب نحيل هاديء يتجول في الشوارع مندهشاً ينظر في حسد الى  
محطات الأوتوبيس التي يتجمع حولها الروس صاخبين يحملون أكياسهم في  
لهفة للعودة الى مدنهم الصغيرة حيث يعرفون كيف يستمتعون بكل دليقة  
من وقتهم بعيداً عن المدينة السمراء المتجهمه .

\*\*\*

منتصف الليل في اسوان ..

اسوان نائمة تماما .. لا أحد في الشوارع .. المحلات مغلقة ..  
اسوان تستيقظ في السادسة صباحا وتنام مرتين .. الأولى من الواحدة  
ظهرا حتى السادسة .. والثانية من منتصف الليل الى الصباح .

الحديقة الرفيعة التي تتوسط شارع النيل مزدحمة بمئات الانفار  
الصعايدة الذين يعملون في بناء الكورنيش .. وقد راحوا في سبات  
عميق بعد يوم عمل شاق .

فجاء تتراقص انوار قرية من بعيد .. ويرتج شارع النيل الهادىء  
بالضجيج . ويعبره طابور من السيارات الضخمة تحمل اعدادا ضخمة  
من الرجال الى خارج اسوان .. انها وردية جديدة ذاهبة الى السد ..  
المدينة الأخرى التي لا تنام دقيقة واحدة في الساعات الاربع  
والعشرين .. !

# الطريق







من اسوان حتى الموقع طريق من الاسفلت منحوت في الصخر ،  
في الجبل ، وأحيانا لا يقوى الطريق على اختراق الجبل فيدور حوله  
بمكر وغضب ، ويصعد ويهبط في انحناءات مفاجئة .. يصعد حتى  
قمة التل التي لا يستطيع اختراق بطنها ويهبط مسرعا من ذروتها الى  
أسفل اسود لامعا مكفهرًا .

هو بالليل شيء جميل وغامض تنيره على طول ثمانية عشر كيلو  
مترا آلاف من المصابيح التي أنبتها الطريق على جانبي جسده فتبدو من  
أعلى بقعة كبيرة من العيون المضيئة التي تحرس الطريق. كأنها تخاف  
ان ينزلق هذا الشيء الاسود الى الصحراء المظلمة المستعدة المتحفزة ابدا  
لاسترجاع ما اغتصب منها ..

وهو بالنهار ، يتصبب عرقا وجهدا ، ودخانا وغبارا وضجة ..  
لا توجد به قطرة ظل أو قطرة ماء .. انه مجرد طريق صحراوي متعب ،  
مجبور أن يحملك الى حيث تريد ..

لكنه بالليل يقودك في رفق ، ويفتح لك قلبه المستطيل الصليب  
ويتنهد معك ، يتسم أحيانا ، وتلمع اسنانه الصخرية تحت عيونه  
المضيئة ويتقاذفه الصعود والهبوط مثلما تتقاذف الانسان الحسرة  
والفرح .

\*\*\*

ان رحلة الطريق تبدأ بالبحث عن سيارة • السيارة تقطع الطريق  
عادة في أقل من ثلاثة أرباع الساعة. وليس معنى هذا ان تتصور انه  
يمكنك الذهاب الى السد والعودة منه في ساعتين • فليس هذا ممكنا الا  
في حالة واحدة فقط • اذا كنت تملك سيارة ( ملكية خاصة أو عامة ) •  
اما اذا كنت من عباد الله امثالنا • فالذهاب والاياب يستغرق اربع  
ساعات على الأقل • وقد يأخذ منك يوما كاملا • ويضيع منك في محاولة  
اصطياد عربة •

وهذا هو بالضبط السبب في ان ملوك السد غير المتوجين هم

السائقون • لا تصدق من يقول لك انه يكفى أن تشير بأصبعك لاي سيارة في الطريق فتقف لتأخذك • لقد تخشبت أصابعنا من الاشارة ونحن ضائعون في أطراف الطريق الطويل ولا احد يقف لنا • والكنك في النهاية ستدرك صعوبة الامر •• فلو وقف كل سائق لمن يرفع اصبعه في الطريق لما انتهى ابدا ••

الشخص الوحيد القادر على أن يوقف أى سيارة فى أى وقت هو جندى البوليس الحربى ••• ان جنود البوليس الحربى بنساراتهم الحمراء ينتشرون فى كل مكان كالملائكة • وحول كل منهم نبت حلة من الضائعين فى الطريق ينتظرون الفرج ••

وتأخذنا السيارة فى الطريق •• وتقطع مسافات شاسعة فى صحراء كاملة قبل ان تواجهنا خضرة مفاجئة وعدة منازل •• وحائط ضخم به ١٨٠ عينا •• انه خزان اسوان القديم الذى وقف اميل لودفيج امامه مبهورا منذ ثلاثين عاما بالضبط وكتب يقول انه شاهد اعظم خزان فى العالم •

وبجوار الخزان محطة الكهرباء الضخمة التى شيدت فى عام ١٩٦٠ لتنير السد ومدينتى اسوان وقنا •• ومصنع كيما •• ويكفى لتصور كمية الكهرباء التى تنتجها هذه المحطة ان تعلم ان عنبرا ضخما من الآلات فى كيما يستهلك من الكهرباء قدر ما تستهلكه القاهرة فى يوم ••

وتمتد الصحراء من جديد وفجأة تجد نفسك وسط مدينة سكنية كاملة •• صفوف من العمارات الحديثة الضخمة التى يبرز جهاز التكييف من كل طابق فيها كأنما هو خاتم ختمت به كل عمارة. وتستمر هذه الصفوف عشر دقائق والسيارة تنهب الارض وتختفى العمارات وتعود الصحراء • كل شيء تراه هنا لم يكن شيئا منذ أربع سنوات • مدن جديدة تظهر تحمل أسماء غريبة • السيل • هنا يعيش الروس والمصريون فى بلكونات متقابلة • ثم كيما • مدينة أكثر أناقة من السيل ليس لها علاقة بالمصنع التى يحمل نفس الاسم سوى علاقة الملكية • فهى تضم العاملين فى السد • وغالبيتهم من الروس • وتمر بنا لوحات خشبية تحمل اعلانات أفلام تعرضها دار للسينما هنا • وتختفى المدن الجديدة • وتصبح الشمس كل شيء امامنا باللون الاحمر • وعلى طول الطريق تمتد مخازن للآلات وقطع الغيار وتكاد تظن انك وصلت الى آخر الدنيا ••

ان الطريق الصلب الصارم يستسلم تماما فى الكيلومترين

الآخرين ويتخلى عن كبريائه السوداء المسفلثة • وينهار عند حدود  
الموقع ، الى طريق ترابى مزعج مليء بالغبار والضجيج والاحجار والآلات  
والاصوات والاشياء والناس • انه يستسلم باستكانة فتسير فوقه بأقدامها  
الصلبة الجرارات والكرافات وبأقدامها البشرية الحافية والمنتعلة الناس  
والرجال والاطفال والنساء • وبالعجلات المطاطية تصفع وجهه جميع  
أنواع العربات • انه يصبح طريقا خطرا فقد تصدمك فى أية لحظة غير  
حذرة عربة أو حجر أو كراكة أو جرار أو ونش أو ماسورة ••• انه  
يسلمك للسد ••

وكاننا دخلنا فجأة على أحد احياء القاهرة الشعبية ، جامع ومقهى  
بلدى وزحام •• واعلانات سينما ولافتات وسيارات ومستشفى وبيوت  
صغيرة بلا نوافذ واكشاك مرور واكشاك سجاثر واكشاك من الخشب  
والطين والصفيع والاحجار والقماش حيث يباع الفول والجبن والخبز  
والشاي واللحم والعدس والطماطم والبطيخ المشقوق حيث يشرب العمال  
الجوزة مع الشاي ويجلسون لحظات راحتهم •

وتبطيء السيارة أمام لوحة بيضاء ضخمة • انها اللوحة الشهيرة  
التي رآها كل مصرى وكل روسى فى الصحف والسينما •• وتحمل  
هذه الكلمات : « يابنة السد ، باق على تحويل مجرى النيل كذا يوم »  
وهي العبارة التي سجلت يوما بعد يوم سباق الزمن الرهيب مع الطبيعة  
الذي انتهى فى مايو ١٩٦٤ •• ان اللوحة مازالت تحتفظ بنفس  
الغنوان الذي يخاطب ٢٢ ألفا من العاملين •• وتحتها هذه العبارة :  
« شكرا ، رعاكم الله واعانكم على المرحلة التالية ، • والتوقيع  
( جمال عبد الناصر ) ••

وبجوارها لوحة مماثلة تحمل نفس الكلمات بالروسية ••

السيارة تسير ببطء • الطريق هنا صعب للغاية • والزحام شديد •  
وبرغم هذا فالمفهوم أن السائر مسئول عن نفسه • ولهذا لا بد أن تمشى  
فى وجه السيارات لا امامها كى لا يحدث لك شيء وتراها جيدا على مبعده •  
فلا وقت هنا ••

\*\*\*

زوار السد يؤخذون الى النموذج أولا : أمام النموذج حمل مرافقنا  
عصا طويلة ، وجعل يشرح لنا مرة على النموذج ومرة على عشرات  
الخرائط المعلقة على الجدران الدائرية • وهو يتحدث بسرعة السيارة التي

جاءت بنا ، ونحن نتابعه بأعيننا في تركيز شديد نحاول ان نفهم الامامي من الخلفى والمنسوب الذى يرتفع من المنسوب الذى ينخفض . وتنتقل عيوننا مع العصا التى تروح وتجيء بين الخرائط والنموذج ، ولا ندرى موقع السد من النموذج ونخاف ان نسأل سؤالا يكشف عن بلاهتنا ونلوم انفسنا على ان دراستنا لم تكن علمية حتى نتمكن من استيعاب سىء من هذا الحديث . . والشاب ماض . يتوقف يردد فى تفه للمات الشرق والغرب وقناة التحويل والمجرى القديم ومحطة الكهرباء . . وتعلق بعبارة واحدة قالها بدت اكثر بساطة ونرددها لانفسنا فى عصبية لنفهم شيئا . . السد اكبر من هرم خوفو بسبع عشرة مرة . . ومن خزان اسوان بتلاثين مرة . . .

ورغم هذا ، لم تكذ تسنح لنا الفرصة حتى هربنا من مرافقنا  
الشباب . . ا

\*\*\* .

مثل الاوعية الدموية الصغيرة فى جسمك التى تنتشر فى كل مكان ولتقى وتتباعد فى اكثر من مكان وتدوخ اذا حاولت ان تتبع بداياتها ونهاياتها . . تنتشر الطرق فى هذا العالم العجيب . فوق بعضها وبجوار بعضها . مازلنا نعجب كيف يتبين الناس معالمها . وكل الطريق فى منطقة العمل . . الموقع . . غير مرصوفة لانها غير دائمة . بعضها يخفى فجأة ، وبعضها يظهر فجأة كلها ستختفى بعد سنوات عندما يرتفع الكائن الضخم ليغطي كل هذه المساحة . متى ابتلعتك احدى هذه الطرقات اصسبحت معرضا لان نتوه تماما . . ولا تعرف لك شمالا من جنوب او شرقا من غرب .

والشرق والغرب كلمتان تترددان كثيرا هنا . وهما كلمتان ليس لهما اى مدلول سياسى على الاطلاق . . النيل بمجره القديم هو الفاصل بين الشرق والغرب . . العمل الاساسى يجرى فى الشرق . هنا قناة التحويل . . والانفاق ومحطة الكهرباء . . وبجوارها مصنع الخراسانة الضخم ومئات الورش والآلات ومستعمرة سكنية للعمال والمهندسين ومستشفى وسينما تحمل اليها مقعدك وترى فيها فيلما جديدا كل ثلاثة ايام مع جريدة سينمائية ولم تتغير منذ ثلاث سنوات عبارة عن رقص لنجوى فؤاد . واخيرا الطريق المرصوف الذى يحملك الى اسوان ويمر بملدن مسكونة اخرى هى كيما والسيل .

وفي الغرب توجد مستعمرة سكنية أنيقة اسمها صحارى سيتى .  
مدينة جميلة نظيفة بها نادى روسى وصالة للبياردو وسينما ومطعم يقدم  
وجبات للمهندسين بأسعار زهيدة ومكتبة يزدهم عليها طلابور العاملين فى  
السد يستعيرون ما بها من كتب للكبار والاطفال .

فى الغرب أيضا الوزارة .. او الهيئة .. أو التفتيش .. عمارة  
ضخمة على ربوة عالية . تراها من أى نقطة فى الموقع .. هذه العمارة لها  
بابين رئيسيين على الجانبين . كل باب يقود الى الأدوار الثلاثة .. الباب  
اليسر يقود مباشرة الى مكاتب الروس .. وفى البداية يخيل اليك ان  
العمارة تنقسم الى عمارتين احدهما للمصريين واخرى للروس . ثم  
تكتشف ان لكل مسئول مصرى هنا قرينا آخر روسيا فى نفس المكان  
من الناحية الاخرى واحيانا كثيرة فى نفس الغرفة .

وينحدر الطريق أمام الوزارة فى شكل دائرى .. وتمتد امامك على  
الفور عدة طرق .. وقبل عام واحد كان الذهاب الى الشرق يقطع طريقا  
دائريا طويلا يستغرق حوالى الساعة يعبر فى اثنائها خزان أسوان . ومنذ  
مايو ٦٤ أصبح هناك طريق صغير لا يستغرق بالسيارة غير دقائق ..  
طريق طوله الآن كيلو متر واحد .. على جسم السد .. !







معركة يومية  
وسؤال بلا إجابة !



بعرض النيل ، امتد شريط من ركام الصخور من الشرق ..  
وشريط مماثل من الغرب .. وبينهما ظلت فجوة واسعة يتدفق منها ممر  
مائي من الجنوب الى الشمال .

ووقفت على الشريط الركامي في الشرق خمسة عشر عربة روسية  
قلاية ضخمة ممتلئة بالاحجار .. ووقف في الغرب عدد مماثل ..  
وبدأت الثلاثون عربة تلقي اطنانا من الصخور في فجوة الماء التي  
تفصل بين الشرق والغرب ، وعندما افرغت العربة الاخيرة حملتها التحم  
الشريطان الركاميان وتحولا الى شريط واحد من الاحجار والرمال  
والتراب ..

هكذا أغلق لأول مرة في التاريخ مجرى النيل العظيم ، ليكون أول  
عابريه جمال عبد الناصر في ١٤ من مايو ١٩٦٤ .. بينما كان السائقون  
يرمون بأنفسهم في الماء بملابسهم ويسبحون خطوات داخل النهر ثم  
يعودون ليحتضنوا الجسر الترابي ..

وهدأت الحركة تماما في النيل الذي ظل يموج طوال ثلاث سنوات  
بالصنادل والجبارات التي تحمل الصخور من قناة التحويل ومحاجر  
الجرانيت الى قاع النيل .. وزحف الرجال فوق الجسر .. فمنذ تلك  
اللحظة بدأ العمل على أرض راسخة ، ثابتة كالطود .

\*\*\*

ان السيارات التي تشبه حيوانات ما قبل التاريخ العملاقة ..  
ما زالت تنطلق كل ساعة من الجاراج - المدينة الضخمة التي يصدر عنها  
دائما صوت كزئير الاسود - وتأخذ طريقها على الفور الى المحاجر التي  
تحيط بجسم السد من كل ناحية ..

وفي كل محجر تتصدى للجبل كراكة روسية وعدد من العمال  
والفنيين المصريين يفجرون الصخر .. وتعرف كباشة الكراكة من الجهل  
لتملا صندوق العربة .. ثم تنطلق العربة الى جسم السد ..

وبعد دقائق تصبح السيارات مجرد علامات متحركة .. فوق الطرق  
التي ترتفع كخيوط رفيع .. ويبدو الافق كله خطا متعرجا من المرتفعات  
المتقاربة الملونة التي تحيط بالمكان كله كقوس هائل .

وفي قمة هذا الافق تقف عدد من ماكينات التخريم منساعة مثل  
المدافع المضادة للطائرات ، تحفر الثقوب في الجبل .. وتقف السيارات  
لترتفع مؤخراتها عموديا . وتلقى بما تحمله من تراب وطين وصخور على  
الارض ، فتتسلقه الهراسات والبلدوزرات وتدكه دكا في جسم السد ..  
وتفرغ المواسير - التي تمتد في كل مكان - ما في جوفها من رمال ومياه  
في اندفاع وشباب وحيوية لتغطي جزءا من جسم السد وتحيله الى مفرش  
اصفر ذهبي يلمع تحت اشعة الشمس القاسية .. لينتصب بعد ذلك  
اول سد في العالم ملبس بالرمال ..

ان مواسير التجريف هذه ، طريق اخر بطول ، من طرق النقل في  
السد .. فهذا الاختراع الروسي ، الذي يطبق لأول مرة خارج الاتحاد  
السوفييتي - ينقل  $\frac{1}{4}$  مليون متر مربع من الرمال شهريا .. الى جسم  
السد ..

وفي داخل ممرات التفتيش التي تبدو من اعلى كقطارين طوليين  
من عربات السكك الحديدية تعمل آلات الحقن في صب كنيات من الطمي  
السائل المختلط بمواد اخرى .. في مواسير تحملها الى اعماق مائتي  
متر تحت سطح النفق .. لتصنع بتماسكها مع قاع النيل والاحجار  
الملتصقة حائطا من الصلب السميك لا يمكن ان تتسرب منه قطرة مياه  
واحدة .

ان الكفاح ضد التسرب هو اخطر مهمة يواجهها السد الآن ..  
وفي المبنى الذي يطل من الغرب على كل شبر في السد ، توضع الخطط  
وتحسب قوة المياه وقدرتها على التسرب وطاقتها ، وتعديلها تحصينات  
ويخطط دفاعية في المقدمة والمؤخرة ، وآبار بطلمبات لنزح المياه ، واجهزة  
اختبار وحلول احتياطية من داخل ممرات التفتيش ثم خسط الدفاع  
الضخم ، الذي يقام وسط جسم السد . على عمق مائتي متر حتى  
يلامس القاع الجرانيتي .. مكونا بذلك اضخم واعمق ستارة عرفها  
انسان هذا العصر .

\*\*\*

وتعود السيارات التي انتهت ووديتها الى حظائرها ، تحمل على

أجسادها آثار العمل الشاق .. غبار وذرات تراب وطين وأسمنت  
وخدوش وأبواب مكسورة وعجلات منتزعة .. ويصبح الجراج مثل  
مستشفى الميدان .. مصابون ينتظرون علاجهم ليعودون مرة أخرى الى  
المعركة ، أو مرضى تحت الملاحظة ، يمرون بفترة النقاهة .. ينتظرون  
أوامر العردة ..

والعمل لا يتوقف والامر لا تكف .. كل شيء في حركة دائرية  
.. . . دائرية وصعود الى أعلى .. ويتسلق عشرات من العمال ممرات  
التفتيش الماردة النائمة . وفي ايديهم نيران اللحام ليلحموا حديد التسليح  
الدائري استعدادا لصب الخرسانة .. والناس تقذف بكميات من المياه  
من الخرطوم على الطمي الذي تهرسه الهراسات وخراطيم أخرى ممتلئة  
بهواء مضغوط قوى ينظف الصخور التي فجرت بالأسس استعدادا لالقاء  
الخرسانة فوقها . وكواسير التخريم تحفر فيها التقوب لتستقبل الخرسانة  
التي يلتهمها السد وجبة يومية لا غنى له عنها .. وأخشاب تعد وتصب  
عليها الخرسانة في الحال .. وكل لحظة وكل ساعة ، وكل وردية وكل  
يوم ، وكل ليلة ، يرتفع جسم السد ، يحتضن الطمي والرمال والاحجار ،  
ويستقبل آلاف العربات والصعايدة والروس ووكلاء الوزارات والمهندسين  
والفنيين ، ويحمل فوقه البلدوزرات والهراسات والعربات ومكن التخريم  
والديناميت والخرسانة والاشخاب ويتصعب الناس عرقا تحت وهج  
شمس حارقة وسماء لا تعرف الغيوم ، وغبار يتطاير ، وناس تأتي ،  
وآخرون يذهبون الى كيبا والسيل وصحارى والسينما والمطاعم  
والجراجات والتركيبات والورش وكورنيش النيل بأسوان ، واجازات  
تمضي بالناس الى مواقعها الاصلية في جرجا وقنا وسوهاج واسيوط  
والاسكندرية والمنصورة والقاهرة . ويعود العالم لينضغط ويلتحم من  
جديد على هذه الارض في مواجهة يومية بين الانسان والصخر والجبل  
والظمى ، وتخصينات ضد المياه ، والستارة والانفاق وكباشة الكراكة  
التي تعض الجبل يوميا وتجذبه وتلقيه ارضا ..

- ٢ -

في أول مرة ذهبنا الى السد قادتنا اقدمنا الى قناة التحويل ..  
والسور العالى الذى يطل على محطة الكهرباء ..  
وعندما اقتربنا من السور وانحنينا فوقه وتطلعنا الى اسفل ،  
تملكنا نفس الشعور .. فقد تماسكت ايدينا وتراجعنا هلى الفور ..

دارت دورسنا •• وارنعتست مفاصلنا ••

فبعيدا الى اسفل ، كانت هناك خلية نحل •• مستحيل ان تستطيع ان تفهم ما يجرى او تتبع شيئا او شخصا من البداية الى النهاية •• الناس في حجم النحل ، منتشرين في كل مكان • دوائر حديدية ضخمة ، هي توربينات المستقبل ، وعشرات من الكبارى والسلالم الصغيرة التي تصعد وتهبط في كل اتجاه وكل ناحية • والناس تتحرك عليها وتعجب كيف يستطيع كل شخص ان يفهم اوله من آخره ولا يختلط بالآخرين وتضيع ملامحه الخاصة بينهم •

والادهى من ذلك ، الصعدي الاسمر باللقافة التقليديه فوق رأسه والجلباب الابيض الملموم حول ساقيه ، الذي ظهر فجأة تحننا ، ونطلعنا اليه جميعا برعب • كان يريد ان يهبط الى قاع الخلية على مواسير طويلة عمودية • وامسك المواسير بيديه وجعل يهبط ورأسه الينا وعيناه علينا وهو يبتسم ، ويهبط ويبتعد ، ويصغر شيئا فشيئا حتى لم نعد نتبين وجهه وان كنا نرى نقطة جسمه البيضاء التي استقرت اخيرا في القاع وسرعان ما تلاشت بين مئات النقاط الاخرى •

ولم يكن بوسعنا ان نفعل مثله لنصل الى قاع خلية النحل •• فتحولنا الى الطريق الدائري المنحدر المؤدى الى محطة الكهرباء ••

والى يميننا جرت قناة التحويل •• التي استمر العمل في حفرها ثلاث سنوات •• يطل عليها جبل شامخ مازالت تبدو على حانطه آثار المعركة الهائلة التي دارت بينه وبين الانسان • والى اليسار جبل آخر ما زال رمزا •• فهو لم يدمر الى نصفين بل نحت من اساسه على عمق ٨٠ مترا ، كي تتسع القناة للمليار متر مكعب من الماء في اليوم الواحد •

ووصلنا اخيرا الى الكوبرى الذي اصطلحنا على تسميته منذ اليوم الاول بالبلكونة • فمنها تطل على القناة وبوابات الانفاق الخلفية ومخارجها •• وتطل على قاع خلية النحل ••

والبلكونة نفسها لا يوجد بها موضع لقدم • فهي مزدحمة بالكرات والاوناش الضخمة التي تتحرك على قضبان حديدية لترفع بوابات الانفاق ، وهي اضخم بوابات من نوعها في العالم ، اذ تزن الواحدة منها ٢٣٠ طنا ••

وفوق احدي الكراكات الضخمة ، كتب احد العمال المصريين بخط



متعرج : « احترس من سلطان » .. وهكذا قالت الكراكة القادمة من  
موسكو اسما مصرياً يدل عليها . فهي تسيطر على المكان تماما ، كل شيء  
يتوقف على الخطاف الحديدي الهائل الذي تحمله ويدور في كل اتجاه  
ويصعد ويهبط مع صفارة الانذار التي تطلقها الكراكة محدرة من ..  
سلطان !

ومن فوق هذا كله يخلق الونش الهوائي الهائل الذي يقف نصفه  
فوق الجدار الشرقي المرتفع ، والنصف الاخر في الناحية الاخرى . غرب  
القناة ويصل بينهما سلك صلب قوي تنزلق فوقه علبة ضخمة تتحرك  
أوتوماتيكيا وتحمل خمسة أطنان من الخرسانة لتلقى بها في عشر  
دقائق على بداخل الانفاق .. حيث تبني قواعد التوربينات امام العيون  
التي فجرت في الجبل ..

وفي كل مكان تلمح شرارات النار منطلقة من افواه خراطيم اللحام .  
نار زرقاء يقبض عليها بيد مدربة صعيدى كان يسير خلف الجاموسة ،  
وتركها في طريقها ، وجاء يكتشف طريقه هنا .

وبدأنا نهبط الى أسفل ..

وحملتنا ستون سلمة الى ركن صغير انزوى فيه بائع شاي .. كأنما  
يعرف انك عندما تصل اليه تكون قد بدأت تلهث من العطش .. ونعود  
الى السلم الحديدي مرة أخرى .. وعندما ينهى يبدأ سلم خشبي يصل  
بنا الى قاعدة التوربينه .. خمس درجات فقط ، وبعدها تصبح بالضبط  
مسمارا صغيرا او قطعة رقيقة من الخشب أو انسانا بجوار دائرة هائلة ،  
قاعدة من الخرسانة المسلحة تستعد ليضعوا فوقها التوربينه التي تزن  
مائتى طن ..

وندور حول قاعدة التوربينه ، ثم نواصل الهبوط من جديد ..  
فنحن لم ننته بعد ..

أربعون درجة من سلم عمودي نهبطها ونحن نلهث .. ثم نشعر  
فجأة بالهواء في ظهورنا .. وصوت « تش تش » قوى كالهواء المضغوط  
يتزايد كلما اقتربنا من النفق .. حتى يضرب الصوت والهواء سيقاننا من  
فتحة في ماسورة وبعد خطوات تنزل قطرات الماء على رءوسنا ، ويبدأ  
النفق ..

رنين ضخم مفاجيء كان ألواحاً هائلة من الحديد تسقط أو تضرب  
بالحديد ، وفرقعات ملدوية ، وخراطيم ضخمة وكابلات وموتورات ..

وبرميل بالعرض .. والمكان يظلم رويدا رويدا .. ويختفى الضوء الآتى من الحلف .. بل ذلك ونحن مازلنا فى مقدمه النفق التى تمتد ٣٠مترأ . وفوقنا فى السقف تلمع سرارات اللهب التى يصوبها عامل لحام الى المشبكة الحديدية التى تحمى الجدران ..

العمل يجرى على قدم وساق داخل النفق الذى لا يعرف العالم انفاقا اخرى فى مثل قطره (١٥م) ، فى أى مكان منه . العمال يفكون أسنان الكسارة الضخمة ليضعوا لها أسنانا جديدة ، وسرعان ما يستقبل قمعها الضخم كتل الجرانيت الضخمة . وتدور الكسارة لتفتتها ونحوها الى أحجار صغيرة فى حجم الطوب الذى يشوطة الاطفال بأقدامهم .. وبجوارها كانت تقف فى شموخ كراكة تغرف بجزدنها مئات الاطنان من الاحجار التى تنهدم من العمل اليومى . فى توصيل النفق المائل بالنفق السفلى .. وحجرة مصفحة من الصلب فى مقدمتها مقعد يجلس عليه صعيدى امام ازرار وأشياء يتحكم فيها ، ويدفع الجردل ويسحبه ويرفعه ويخفضه ويلف بالكراكة نفسها حول نفسه ..

والناس تتحرك بسرعة ولا تقف تحمل عروقا من الخشب ومن الحديد . ويتقدم منا بلدوزر يخوض فى الماء .. وملتصق بالحائط ليمر بنا عدد من العمال يحملون أخشابا على أكتافهم .. ونمر نحن بصناديق مغلقة كل صندوق رسمت عليه جمجمة وعلامة تحذير من الموت ومن الاقتراب ، وبداخل هذه الصناديق محولات كهربائية تمتد منها كابلات تغذى الآلات والمصابيح الموجودة داخل النفق ..

لقد بدأ العمل فى هذه الانفاق فى أغسطس سنة ١٩٦١ ، وانتهت فى مايو ١٩٦٤ ..

وكان العمل يجرى فى الوقت نفسه فى حفر قناة التحويل .. أما ما يجرى الآن فهو حفر وبناء الانفاق المائلة .. وهى ستة أيضا مثل الاولى ، وتنتهى فى مايو ١٩٦٦ ، والهدف منها أن يكون مدخل المياه أعلى من مستوى رسوب الطمي فيحال بين اندفاع الطمي الى التوربينات .. وهى المرة الاولى - أيضا ! - التى تستخدم فيها هذه الانفاق المائلة فى العالم ..

ان كل رجل من الخمسة آلاف مصرى وروسى الذين عملوا سنوات ثلاث فى حفر هذه الانفاق ، ما زال يعمل حول عينيه دوائر سوداء داكنة ..

لقد كان حفر هذه الانفاق بالنسف عملا بطوليا حقا .. لان الجبل كان كائنا مجهولا لا تعرف متى وأين ينفجر .. ومن سيختار من الرجال ضحايا له ..

وربما كان هذا هو الذي جعل أحد العمال - واسمه سعد محمود حمد - يصبح في يوم انتهاء العمل في الانفاق والتحويل :  
- السد خلاص .. شطبنا ! ..

### - ٣ -

في الانفاق قالوا لنا هنا بكى الوزير وكان ابنه قد مات .. وفي الجراجات قالوا لنا : كان صدقي سليمان يجلس هنا طول الليل على الارض على اطار سيارة قديم ليرى العربات بنفسه وهي تخرج للعمل ..

وفي محجر « الوزير » ، قالوا ان هذا المحجر كان استراحة يشهد منها كبار المسئولين العمل « من فوق » ، وعندما جاء صدقي سليمان حول الاستراحة الى محجر الى مكان للعمل لا يشهد منه العمل ، وعلى كل محجر وفوق كل طريق حكاية جزء من طرفها صدقي سليمان .

لقد كان السد العالي في حاجة الى فرقة من الرجال من نوع خاص .. ولا توجد ترجة انسانية لهذا « النوع الخاص » سوى ان الوزير ينسى انه الوزير التقليدي الذي في اذهاننا ، وان المسئول يحمل هما أكثر ، يحمل هموم العمل كله وهموم زملائه ، ويكومها فوق رأسه . وان الوزير يصبح فعلا أكثر الناس عملا وأكثرهم بذلا للطاقة ولدفع العمل ولناقشة تفصيلاته بنفسه وبمعاونه وبلا معاونين ، ويعيش كل ذرات حياته طول الوقت ، طول العمل ، طول الليل والنهار في كل ركن ، وفي حنايا كل انسان ، يناقش ويحل مشكلة مهندس هجرته زوجته ، ويحل قضية توفير الآلات وشراء عربات جديدة ، ويمزج الخبراء الروس بالصعايدة المصريين ، ويقود الاوركسترا ويعزف أرقى سيمفونية شهدتها أرض مصر .

منذ السادسة صباحا ونحن نحاول أن نلقاه ، ذهبنا اليه في محطة الكهرباء ، فقالوا لقد كان هنا وذهب الى الخلاطة ، وذهبنا الى خلاطة الاسمنت ، وقالوا لنا لقد ذهب الى جسم السد ، وفي جسم السد تتبعناه الى الانفاق ، ومنها الى المحاجر ، ولم نلحق به ، وفي النهاية قابلناه في مكتبه .

أول انطباع في عينيك من ملبسه ، من قميصه وينظفونه ، أرخص قميص أبيض وأبسط ينظفون رمادي ، رداء لابرأه على وتزير أبدا ، وأذرعه عاريه سمراء ، وجسمه شامخ مبني ، الانطباع النسائي من سمرة وجهه الداكنة وعينييه داخل جبهته كتمثال فرعونى هرب لتوه من أحد معابد أسوان ، عملاق قديم أسمر فى لون الصخر وصلابة الجرانيت .. وصوته الخافت وكلامه القليل يذكرك بالابطال الذين لم يترك لهم انغماسهم فى العمل فرصة اعداد الكلام وعادة ترتيب الالفاظ ، وتحار فعلا ..

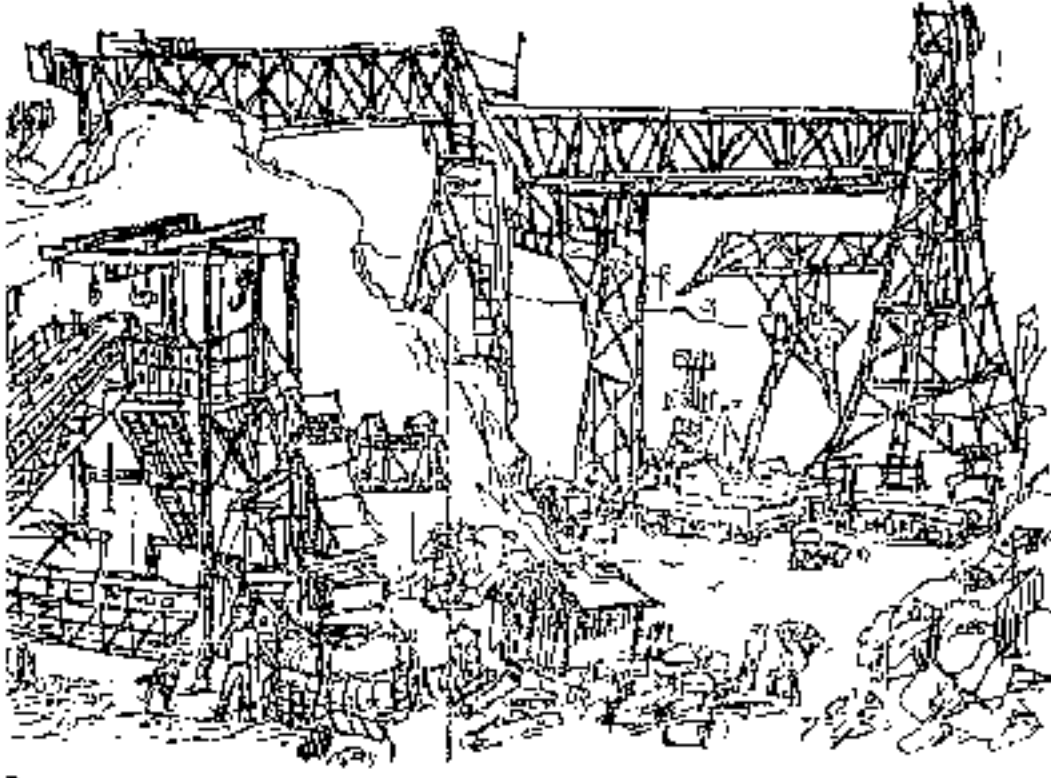
ونصف المقابلة معه كانت ضد المقابلة ! ، كان يستجوبنا بدلا من أن نسأله . وكنا نريد أن نعرف لماذا وكيف .. لماذا وكيف تحول السد الى معركة حقيقية . منذ جاء صدقى سليمان ، معركة يقودها هذا الرجل ويتخطى بها الحواجز المستحيلة . وقال هو : اعطاء الرجال المسئولية ! قال : اننى أومن بالانسان واثق به ، واعطيه المسئولية ، وفى أغلب الحالات ، بل دائما تقريبا تبني المسئولية الرجال وتصنعهم وتضاعف من طاقاتهم ..

ابراهيم زكى قناوى ، نائبه الاول ، قال لنا ، السر هو فى الحب والتعاون ، هذا هو سر تدفق حيوية العمل فى السد ، فوزيرنا قادر على تجميع كل الخبراء والوكلاء والعمال وغرسهم فى العمل .

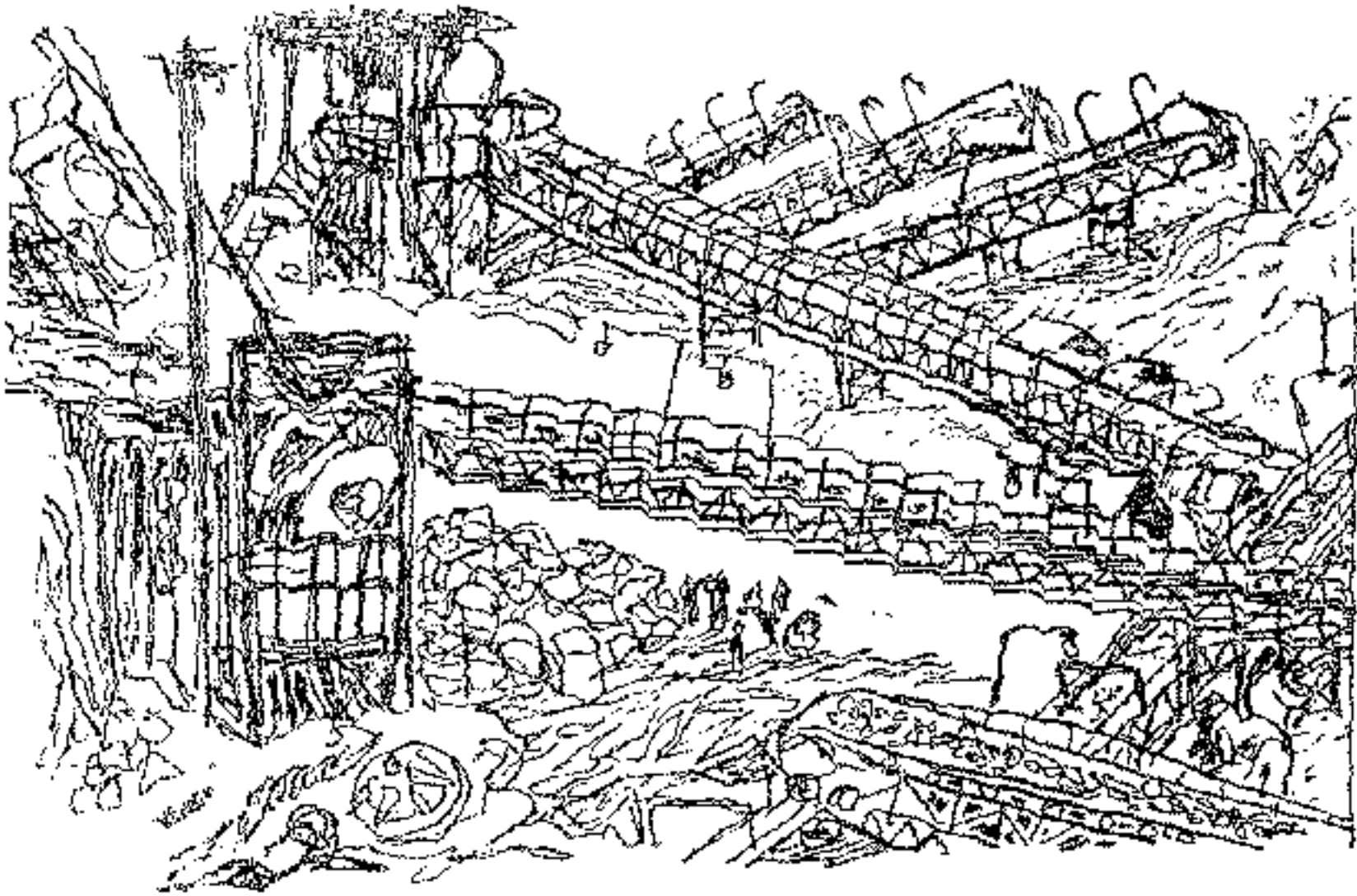
وابراهيم زكى نفسه نموذج آخر جنونى ، رجل تعدى الستين ، فى حيوية ابن العشرين ، خبير بمهنته كمهندس كاقصى حد ، خبير بالنيل خيرة شخصية ، لس كل شطآنه ، واثبتك وعمل فى كل قناطره وحواجزه ، وعمل على كل شبر من ضفافه . لا يعرف انسان حدودا لطاقته . يحسب فى مكتبه كل قطرة ماء ، يرتب عمل كل كراكة ، عندما بدأ السد الرملى ( الذى أقيم أمام قناة التحويل أثناء حفرها ) ينهار فى بداية عام ١٩٦٣ كان اعنى الرجال يبكي وينهار ويقف عاجزا يشهد الكارثة ، وكان هو يعمل بذراعه ويصرخ ويشير ويضحك ويغضب ويضرب الارض بقدمه ، ويقول للرجال من حوله : سنبنى سدا آخر لو انهيار هذا ، وعلينا ان نقويه لنكسب ثلاث ساعات من العمل قبل أن ينهار ..

عندما كانت تنتهى مقابلاتنا مع هذا الطراز من الرجال ، دائما كان يحتل ربوسنا سؤال : هل هؤلاء الناس خلقهم السد أم جمعهم السد ؟

سؤال ظل يطاردنا ونحن نلتقى بكل رجل من رجال السد .. دون أن نعر على اجابة عليه !



السد بلدی





كان أسعد اللحظات اللى جرت لى يوم التحويل ، مغيش يوم  
زيه . منظر غريب . كان فيه لوحة بدأت على ما أظن بيوم  
١٦٧ لغاية مابقى يومين .. اعجوبة .. انا ماكنتش مصدق  
ان العمل حيخلص .. عامل خراسانة قال لى : انا زعلت فى اليوم ده .  
لان الميه غرقت كل اللى عملناه .. ١




كانت نهاية ورديتى الساعة ١٢ ظهرا قبل التحويل بيوم ، وتركت  
محطة الكهرباء ، وبعدين راحت بيتى فى أسوان ، أنا متزوج وعندي أربعة  
اولاد ، ثم جيت تانى يوم الصبح كالمعتاد ومعى كارت دعوة من الوزير  
- باسمى: سيد محمد النجارى - لحضور الاحتفال ، نزلت من الاوتوبيس  
عند القناة الامامية ، لقيت زحمة شديدة جدا فى السد ، مكنتش عارف  
اتجه فىن ، قالوا لى اتجه الى القناة الامامية ، وجدت صوان الرئيس  
وفيه الضيوف وسمعت خطابه ، وقام بتفجير السد الرملى الامامى  
وأطلق حمام ابيض كان نفسى اجيب الاولاد ولكن الزحام كان شديد ،  
وكنت متضايق انى مجبتش الاولاد ومبسوط لانى بشوف يوم مش  
حيتركر ، وكان فيه شغل تصور فى بعض الاماكن ، العمل لم يتوقف حتى  
فى هذا اليوم ، وغالبية العمال خدت اجازة ثلاثة أيام .

كان فيه أربعة واقفين فى أعلى مكان بالمحطة ومش متوقعين على  
الاطلاق ان الميه حتيجى ناحيتهم لكن اندفاع الميه من الامام عمل موجة  
عالية جبارة ، واحد انقذوه ، وفرق التلاته ، لو الميه كانت تقابلت فى  
المحطة من الامام والخلف كانت دقدغتها. المحطة غرقت كل يوم التحويل ،  
وكان على كل حطة فى المحطة معلقين اعلام ، الاعلام اللى كانت مرفوعة على  
مواسير هى اللى كانت باينة ، وكان منظرها غريب جدا ، باينة على سطح  
الميه ، وكأنها مفروزة فيها ، وقت تفجير السد الرملى الناس بتتوع الحقن  
جم حقنوا الخراسانة لغاية مامنعوا تسرب المياه ، قبل التحويل بيوم كنا  
شفالين فى نظافة المحطة .. كانت اللوحة تدينا احساس ان مغيش وقت  
والوزير كان قاعد معنا .


 اخطر خبرة اكتسبتها هنا هي فن قيادة الناس وقيادة العمل وتنوع طرق التشغيل ، مش حتصدق لو عرفت ان سنى ٢٢ سنة بس، أنا خريج فنون جميلة، اسمى حسن توفيق ، المرحلة الاولى نجحت بسبب التعبئة السياسية الشاملة التي حولت السد العالى الى رمز قومى ومعركة وطنية متمثلة بالتحدى والاقدام والخوف من عدم الانجاز بالجسارة ، البطولة كحرب كمعركة كحياة ، وبالرعب من النكوص والرعب من فضيحة عالمية لو لم يتم ، كان العمل جاد وقاسى وممتلىء وكان مليء بالاختبارات القاسية . سنة ١٩٦٣ كان فيه خوف من الفيضان ، كان هناك سباق مع الزمن ، لازم قناة التحويل تكون جاهزة كان معروف ان فيضان ٦٤ حيكون جامد ، وكان هذا اقصى اختبار ، لم يكن فيضاننا عاديا ، وكان لايد من الصمود او يجرف الفيضان كل شىء ، كل مايدل من مجهود . كانت الصخور تلقى فى قاع النيل وكان من الممكن ان يحرفها الفيضان ويدمر كل الجهد المبذول . كان ممكن المياه تهجم على الانفاق وتدمرها ، ولكننا صمدنا امام الاختبار القاسى وحدثت تضخبات غالية وحقيقية .


 اسمى حمدى توفيق محمد ، عمري ٣٣ سنة ، من ثلاث سنين وأنا باستغل فى السد ، كلهم فى الانفاق ، اشتغلت ميكانيكى على الكسارات ، لما جابوها قطع مفكوكة وركبوها الروس . شفتها . الروس ما بيخبوش عنا أى حاجة مش زى غيرهم . معندهمش أسرار فى الصنعة كل حاجة يقولوها لك ، ولازم الصنایعى يرمى نظرة على أى حاجة يفهمها . ويشتغل فيها اخذنا خبرة . عمري ماشفت زى ماكينات التخريم . ولا المكن الروسى كله جسد عينا . البولدوزر مثلا والا الكراكات . قبل السد كنت ميكانيكى ديزل ، يشتغل على مكن ديزل ، كنت باخد فى شركة تيكو ٩٠ قرش . . وجيت اشتغلت هنا ب ٦٠ قرش وأنا من مركز دشنا مديرية قنا .


 أنا كنت مساعداً سنياك ، فى اسناء اسمى سعد محمود محمد ، يشتغل كهربائى فى النفق ، اعلم من سنتين هنا . الاول كنت فلاح كل ما اعرفه تعلمته من السيد . متزوج وعاشق فى النيل الشعبى . شربت الشغل لاني مبسوط انى بتعلم حاجات جديدة . كل



الناس اللى انت شايفهم هنا فى النفق كانوا فلاحين واطلموا . السد  
خلص خلاص . المرحلة الثانية تشطيب مش زى البداية . الشغل  
دلوقت دقي المرحلة الاولى ماكانش الشغل دقي . كان فحست وحفر  
وسواقين وعربيات .

أهم طابع للسد هو السرعة، معركة ضد الوقت، عملية عناد،  
ضرورى السد ينعمل ، الوزير فى أيام المرحلة الاولى كان قاعد  
قصادنا فى الجاراج على فردة كاوتش على أرض الجاراج هنا ،  
أنا سافرت بلاد برة . محمود نجيب راج انجلترا . هنسك فى مصنع  
البارفور د بيركيا ٤ فرد كاوتش للعربية فى ١٥ ساعة نظامهم كده . احنا  
بنركبهم هنا فى الجاراج ده فى ساعة . هنا الحماس هو الاناس هناك امكانيات  
غير عادية بيشتغلوا بالكهرباء وأوناش وآلات ومعدات . هنا الشغل عتالة .  
اكتشفنا هنا ان السوست بتنكسر بسرعة ، عملناها وصنعناها محليا  
وأضفنا سوستتين للشاسيه . وعملناها على ١٥ ورقة ، وحددنا الورقة  
بالضبط ايه . هنا فى الجاراج ده ولما رحنا انجلترا لقيتهم نقلوا نفس  
الفكرة بتاعتنا وأضافوها للتصميم بتاعهم . عندنا الميكانيكى متفتح جدا .  
احنا اسرة واحدة فى العمل بنقعد مع بعض فى الجاراج اكثر من عشر  
ساعات علاقاتنا ودية ، مفيش ريبس وضرورى العامل هنا بيشتغل اكثر  
من المطلوب منه بسبب هذه الطاقات ، فى انجلترا واوروبا لايمكن العامل  
يقعد بعد الثمانى ساعات دقيقة واحدة هنا عندنا فى الجاراج تعال شوف  
بص ناس بيتجى قبل الوردية بساعة ونصف غشان توضع شغلها وتقعد  
بعد ساعات العمل ، احيانا الفحل يحتاج نقعد ثنوية احيانا بنقعد بالثلاث  
ساعات برضا العامل ومزاجه . حاجة غير معقولة وظاهرة لايمكن نجدها  
غير هنا ، ملناش شغلة غير الشغل هنا . العامل البسيط هنا بيتكتر  
حاجات كثيرة جدا قلبه على الشغل قلبه على المشروع ، حماسه تابع من  
احساسه بالبلد كلها ، فى انجلترا الجماعة بتوع مصنع الروالزويس  
بيعترفوا بانهم استفادوا من العيوب التى ظهرت فى العربية بتاعتهم بعد  
شغلها فى السد العالى .

رايت فى لندن شباب الانجليز حاجة غير معقولة ويستحيل انى  
أوصفها لك شباب متعفن ومنحل بشكل غريب وقلدر جدا . مايبستحموش  
وشعرهم طويل وكسالى ، وعاشين بطريقة لايمكن تصورها . مثلا فى

ذهنى صور لشبابنا احنا . الناس اللي بتشتغل فى السد العالى ١٨ ساعة بقوة وعزم ، مفيش نسبة على الاطلاق ، قال لى احد كبار المهندسين الانجليز راجل سنه خمسين سنة ان الشباب عندهم مش بتاع شغل خالص ، الناس الكبار بيتحسروا على الجيل بتاعهم قالوا لى بعد عشرين سنة او ٢٥ فيه شعبين حيتصدروا حضارة العالم ، هما الشعب المصرى والشعب الروسى . ودى كانت مفاجأة لى ، وقالوا لى دول حيعيدوا للعالم حضارته من جديد ، اللي خلاهم يقولوا كده ، لما شافوا شبابنا والعمل هنا فى السد .

انا خدت دروس من عملى هنا ، لازم اتبع بروجرام ، فى الصيانة ، فى اول مشروع حايدا فيه بعد السد حنقد هذه الخبرة ، حوضع بروجرام الصيانة ، الانجليز قالوا لى احنا افكرنا ان احنا كسبنا الحرب وده مش صحيح ، اللي كسب الحرب المانيا ، كل شىء فى انجلترا دلوقت المانى .. وامريكاني . العربيات بتاعتهم دلوقت موتوراتها جنرال موتورز (امريكاني) والمكن فى المصانع المانى .

المهندس عندنا كشكول وده غلط ، فى مصر كل مشاريعنا عبارة عن خدمة تنفيذ ومفيش انشاء ومابتشستغلش فى التصميم ابدا .. عاوزين نصمم باه لبلدنا . انا تخرجت فى جامعة عين شمس قسم ميكانيكا سنة ٦٢ ، وجيت على السد على طول ، انا من قلوب خطبت واحدة قريبتى باحبها ، كنت بكلمها من هنا فى مصر كل اسبوع ، ولكن فى فترة اواخر المرحلة الاولى الشغل كلنى خالص وبدأت هى تفقد ثقتها بى ، هل تنصور اى واحد بيشتغل فى السد ممكن يعمل اى حاجة تانية . انا هنا لما يخلص شغلى بروح اقع على الرملة ، على جسم السد ، واتفرج على العربيات رايحة جاية ، تنقل حجارة وطمي ، بحس طول ما العربيات بتشتغل بالفرحة بان انا اللي بلبنى السد حتلاقى الشعور ده عند كل سواق وعتال ومهندس وملاحظ . ومع ذلك انا بشعر انى انا اللي بنيت السد . ورغم هذا تبدت ثقة خطيبتى كل الناس هنا بتثق فى ولكنى فشلت فى ان اكسب ثقتها .. وانفسخت الخطوبة .

اسمى نصرالله جاد عبدالمسيح، ٢٠ سنة اشتغلت في السد وأنا  
عمري ١٨ سنة ملاحظ خراسانة ، ما بدخنش عشان السلم  
صعب قوى ، أقوم بتحديد منسوب صب الخرسانة والاحظ



عزولها أشرف في اليوم على صب ٨٠ متر مكعب خراسانة بصب يوميا عشان  
التوربينات حوالي ٢٥٠ متر مكعب خراسانة فيه حاجات مشفتهاش غير هنا  
في السد، أول مرة أشوف الهزازات اللي بالكهرباء (آلة لتقليب الخرسانة)  
أول مرة أعرف الفواصل بين الخرسانة وغيرها مشفتش ابدا تسليح زى  
الى هنا أبواب الانفاق أكبر أبواب في الدنيا ، الونش الى بيرفعها صمموه  
مخصوص عشانها . انا باصحي في الساعة ٥ الا ربع لالحق العربية  
واوصل هنا في السادسة صباحا ، أوصل بيتنا في العادة الساعة ٣ بعد  
الظهر واحيانا اصمل ورديتين مع بعض ، انا من اسنا - الفطايمة مركز  
اسنا - وساكن في اسوان - اتعلمت من الروس رسم البلوك وقطاعاته  
الافقية والراسية وتعلمت ترقيم البلوكات . كل حاجة عند الروس  
بالرسم .

كنت حايقى رأسمالى تصور ، اسمى انيس حنا معوض ، كان  
عندى اجتماع مع نائب الوزير ، انا مهندس مدنى للانفاق  
أشرف على الحفر والخرسانة وتشغيل الآلات والتخريم والتبخير



قضيت في الانفاق ٣ سنين ، عمري ٣٢ سنة ، اشعر بالسعادة لما يشوف  
نتيجة شغلى ، وبافخر لاني اشتركت في العمل ، شغل مكناش بنشوفه في  
البلد قبل كده وكنا بنشوف حاجات زى كده في الكتب وفي الافلام ، وكنت  
بأذهل واستعجب ودلوقت انا هايش في قلبها ، كنت شغال في شركة لمدة  
٥ سنين أول ما بدأت آكون نفسي وفتحت مكتب جالى امر تكليف على  
السد . وده غير مجرى حياتى على الآخر ، بدأت بالمهن الحرة وتدلوقت  
طعم المكسب . انا استنشق هنا تراب طول الوقت ١٢ ساعة في اليوم  
بشغل واكل وانام ، بكتسب خبرة لقيت نفسي مندفع للعمل بعد  
ما وصلت هنا بصورة لأصدقها بالنسبة لنفسى ، الخبرة ، روح العمل  
نفسه ، تديك برغم كل الصعوبات روح جديدة وطاقة لامثيل لها . ضخامة  
المشروع وشعورى بأنه من أكبر مشروعات العالم ينسى كل التعب وكل  
المكسب القديم . طموحى اشتغل بإيدى على طول بعد السد حاطلع  
على منخفض القطارة ، او الوادى الجديد ، حاعيش طول حياتى بعيدا

عن العمران ، ومعنديش أمل اسكن في مدينة ، المهندس كده . . يروح  
 الأماكن ويعمرها . ولما تعمير مايسكنش فيها ، ينفل نفسه على طول لكان  
 آخر . وهكذا . . احنا بلادنا عاوزة كده والعصر اللي عايشين فيه عاوز  
 كده . انا اتعودت خلاص ، اتعلمنا هنا العمل بعيداً عن الروتين وتعقيدات  
 البيروقراطية ، لما انزل القاهرة بتضايق من زحمتها ، واحيانا بيوس  
 القطر ، اقرأ احيانا فلسفة وعلم نفس ، عاوز اعرف البنى آدم ، ليس  
 لدى وقت فراغ ، فانا في الانفاق صباحا ومساء .

أنا تطوعت للعمل هنا . طلبت من مدير الترسانة في بورسعيد  
 ان اتركه من اجل العمل في السد . كنت باشتغل في مشروع  
 ناصر لتوسيع قنال السويس . اسمى حمدى متولى ٢٥ سنة ،



من بنها . السد مدرسة في العمل ونظام التشغيل والمعدات والروح الي  
 فيه ، السد خلق حاجة ثانية خالص ، خبرة وناس جداد ، أي مشروع بعد  
 كدة حيقى سهل ومعقول ، اتمنى اعمل في سدود البلاد العربية اخويا  
 يشتغل هنا في خطوط الكهرباء عملي وحياتي وخبرتي ومهنتي اصبحت  
 مرتبطة بالمشروعات العصرية الضخمة الناصرية ، مشروع ناصر لقنال  
 السويس ، وسد ناصر الجالي . .

كنت سواق بلدوزر في مديرية التحرير ، اسمى بدوي  
 ساذل ، عمري ٢٦ سنة جيت أسوان عشان هي بلدي ،  
 اكتسبت هنا قوة الاحتمال والصبر . العمل صعب . أنا



سائق هزاز لك الرمل فوق جسم السد ، ورديتي ١٢٠ متر سمكها ٦٠  
 ميم امر عليها بالهزاز ٢٠٠ مرة في أربع ساعات لكي يصبح سمكها  
 ٤٠ سم او ٣٥ سم . احنا تسع هزازات بنشتغل في قلب جسم  
 السد ، الهزاز عبارة عن جراز ومن خلفه برميلين كبار مربوطين بعمود  
 كزدان بالجراز ، والعمود مربوط على سوست ومواسير تمر منه طول  
 الوقت هزة ، الهزة والسير فوق الرمال تعمل ضغط يجلي الرملة  
 تمسك في بعضها . هوايتي الموسيقى ، انا عامل وبسائق ولكني احب  
 الموسيقى بدأت معي الموسيقى بطريقة مضحكة . ستضحك عندما

أقول لك انى هويت البروجى ، هذا النفير المزعج عندما كنت فى الجيش ،  
 وصممت انا الى جاى من اقصى بلاد مصر اسوان المتاخرة جدا فى ذلك  
 الوقت انى اتعلم هذا البروجى العجيب اللى جذبنى ولكنى اكتشفت  
 بعد كدة ان البروجى ليس هو الموسيقى وانما كان بداية لطريق صممت  
 ان اخوض فيه ، ولم تنفجر طاقتى وحبى ومزاجى الا هنا على جسم  
 السد ، تعرفت بالروس واحد منهم لاحظت هوايتى ، فدعانى الى  
 النادى بتاعهم وبدأت اتعلم ، ادك السد بالنهار بالهزاز والجرار وفى  
 المساء انفخ والعب فى الخروم النحاسية بصوابى وانا الان اضرب على  
 العود والطرمبة والالات النحاسية واشتركت فى اكثر من مائة حفلة  
 موسيقية وانا عضو فى الفرقة الروسية المصرية الموسيقية فى كينا ،  
 عملنا حفلات ما تنعش ، وعزفت مئات المرات ، ويوم التحويل  
 احسست بكرامتى وبنانى مصرى حقيقى وبنانى بنى آدم ، واحلى يوم  
 فى حياتى لسه ما جاش ولكنى على موعد معه واعرفه جيدا ، يوم  
 تنتهى من السد تماما ونقف فوق قمته وننظر الى المياه التى حجزناها  
 وسددنا عليها مجرى النهر ..

هوايتى التعميل ٠٠ عمري ١٩ سنة ، اسمى ماجد مصطفى ،  
 اصلا من العجوزة ، بقالى هنا ٣ سنين ، كنت طالبا فى  
 الاعدادية فى القاهرة تركتها والتحق بمراكز التدريب فى



مصر وتعلمت سواقة البلدوزر ، وتعلمت اللحام والحراطة وانا سعيد انى  
 باشتراك فى بناء جسم السد ولو حتى اشتغل عتال هنا لازم ابني السد  
 كلنا هنا يد واحدة سواقين الهزاز ، احنا اللى بنكتم نفس الرملة !

انا هنا مهندس مقيم ولست صفوت شاهين وكيل الوزارة ،  
 لا تعجب لانى اجلس هكذا على الرمل ولا تهك ملابسى هذه ،  
 فنحن هنا نعمل ، انا لا اتصور الفشل ، لا اخشى عقابا من



المسئولين الكبار وانما فقط اخشى امى فى البلد التى تعرف ان ابنها يبني  
 السد فكيف اعود اليها فى قريتنا واقول لها لقد فشلتنا يا امى ولم نستطع  
 تحويل النيل، هنا فى الحقيقة ، اللى بنى السد، البناء الحقيقىون هم

الصعايدة ، بقولنا وبخبرائنا وبالادوات كلها كان من المسحيل ان  
يبنى السد بدون اذرع الصعايدة وعزمهم وتضحياتهم هنا نحن  
لا نخاف الاخطاء . لا وقت للمداراة عليها لو دارينا ، لو غطيناها  
سنواجه بكارثة لذلك فبمجرد ان نخطيء نعرف في الحال بخطئنا كي  
نصححه ونتعرف منه على الطريق الصحيح ونتجنب ان نخطيء مرة  
ثانية ، العمل هنا له روح يحسها ويعيها ايسط واصفر صعيدي هنا  
يعرف جيدا انه يبني السد لمصر كلها . عندما ننتهي من السد  
سنذهب على كل شبر من النيل وكل جسر وسنبنى من جديد  
عشرات القناطر ، سنفرغ من السد العالي بسرعة ، ليس لدينا وقت ،  
ولدينا عشرات الاشياء الاخرى ، انا احب السد لانه شيء لا يخص  
احدا بالذات ، ومعركة لا يمكن ان تنسب لمجموعة بالذات ، احبه  
لانه يخص مصر كلها والمصريين كلهم .

اسمى معروز عطية من مركز نجع حمادى ٣٧ سنة كهربائى ،  
اشغلت مدة في الخزان قبل السد . اعمل الان على مكنة ١١  
« موتور جنريتور » ، معناها موتور على مولد ، وعلى ترنسات  
اللحام ، واشرف على اضاءة محطة الكهرباء بالليل . وعلى الهزازات  
اللى بتهد الخراسانة بالكهرباء والافاش الكهربائية ، شفت حاجات  
مشفتهاش قبل كده . كافة المعدات مثل ترنسات اللحام الروس . .  
ومكنات اللحام ، اتعلمت من الروس عملية المفاتيح الاوتوماتيكية اللى  
بتدور طلبات خلط الخراسانة ، اعمل هنا من ١٩٦٢ فى محطة  
الكهرباء . واحيانا اثناء التفجير كان يبقى على بعصد عشرين متر مننا  
ونضطر ان احنا منتركش عملنا ، مرة ترنس كبير ٦ كيلو قوته ٤٠٠  
قوت ، الونش جه على كابل الكهربا ، الونش حمولته كبيرة وكانوا  
مارين على كمر حديد ، وبجواره ميسه ، الونش قشر الكابل اتكهرب  
الونش وصعق العمال اللى كانوا صاحبينه وماشيين فى الميه وكان هذا  
من اسوأ اللحظات اللى مرت بى . اما اسعد اللحظات فكانت يوم  
التحويل .



كمال كامل مصطفى ، من المنيا ، ٢٠ سنة ، حياتى اتغيرت  
من المدرسة الى السد العالى . كان ده صعب جدا على ، معاملة  
الناس فى العمل كانت اول مواجهة لى فى السد العالى تعلمت

كيف اعمل واتعامل ، الاحساس بالمسئولية ، النضج المفاجيء ، البعد  
عن الاهل ، الاستقلال تماما الذى لم اتعوده كشاب ، ان اعيش منفردا  
واعمل وسط ناس بعد ان تغير وسط الطلبة كان هذا قاسيا ..  
ومفيدا لى .. احنا عاملين « دورى طاولة » وبنشيل حديد بمجرد  
ما أخرج من العمل اتشطف ، الميه بتزيل التعب ، بعد الطاولة أحيانا  
نتفرج على الافلام فى التليفزيون . وسائل الترفيه ناقصة جدا ، فى  
اسوان سينماتين فقط ، مفيش مسرح ، احساس العازب بالوحدة رهيب  
- مشكلة خصوصا فى اسوان ، حاجوز لما يخلص السد ، وبعدين  
حتواجهنى مشكلة المسكن طبعا .. يعنى لما الواحد بييجى بجوز -  
انفسيل مشكلة صعبه . اصعب من صب الخرسانة . الايام الصعبة  
لما افاجأ اثناء العمل بالتفجير . والصفارة تضرب . ويكون عندى شغل ،  
فمقدرش اخرج من العمل ، لو قارقتة العمال حتخرج ورايا ، فاضطر  
اقعد ، واتعرض طبعا لمخاطر احجار التفجير الطائرة . الجو سخن .  
اقاومه بخلع ملابسى كلها ماعدا جزء من ملابسى الداخلية ، فى حجرى  
طبعا . احس بان احسن يوم عندى لما بشوف اهلى ، لما بييجى لى  
جواب ، وده تقريبا كل ستة شهور مرة . وخصوصا ان اهلى بيشعروا  
ان ابنهم بيشتغل فى السد ، وان دى حاجة كبيرة عندهم قوى ،  
تصوروا ! .



بحر صيام ، كهربائى ، ٣٣ سنة شكلى اكبر من سننى من  
الديناميت ، قبل كنت اعمل فى شركة السكر مساعد  
كهربائى من المرحلة الاولى وأنا هنا ، جيت عشان بلدى ،

اتعلمت هنا فى الهزازات وتوصيل ترانسات اللحام والانارة . اللبنة  
الكبيرة هنا ب ٢٥٠ قرش ودى مسئولية أخذت خبرة كبيرة هنا ، انا من  
اسوان نفسها ، السد ده بلدى ، تركت العمل فى السكر عشانه . انا عاوز  
المهندس بتاع شركة السكر يقرأ الكلام ده عشان يعرف انهم ما كاتوش  
بيقندرونى ، وهنا فى السد احسن ، انا باتعب اكثر من شركة السكر ،  
وباخذ فكرة احسن ، لكن هنا فيه تقدير ، ازاي اقعد عندهم تسع .

سنتين وميفدرونيش ، في المرحلة الاولى كنت باشتغل وسط الديناميت،  
وانا مبسوط عشان الناس هنا بتقدرني ، في ارمنت ميقدروش العمل  
ابدا زي هنا .

كل شيء اتغير في حياتي حتى اسمي . قالوا لي اسمك تفيل،  
اسمي تاوضروس كندس ، سموني في السد « حمام »  
تعالى يا حمام ، روح يا حمام ، واصبح اسم الشهرة حمام .  
سني ٢٥ سنة ، عملت هنا من سنتين ، كل شيء في حياتي اتغير . كنت  
أعمل مع أبي في بلد جنب نجع حمادي هناك ، كنت أعمل مع تاجر مواشي  
أخذ البهايم اوديهما السوق وارجع بيها . هنا انا بشتغل مساعدا  
كهربائي ، تعلمت هنا ، السد غير أي بلد ثانية ، تعلمت هنا حاجات  
تتير قوى ، في الكهرباء وفي الخرسانة ، شفت الفورمة لأول مرة في  
حياتي والبلوك الجاهز .



أنا باشتغل في ابحاث السد من ٥٣، كنت مسئول عن مشروع  
الفرات في سوريا أيام الوحدة ، انما انقلاب البعث وقفه .  
سنة ٥٩ لما كان السد لسه حلم على الورق ، وترجمته  
الوحيدة الى الواقع بضع آلات ومعدات تعد على أصابع اليد ، قابلني كاتب  
أمريكي فقلت له ان غلطتنا ان احنا طلبنا منكم معونة فنية فقال لي :  
وماذا تفعلون وليس لديكم استعدادات فنية ، ولا معدات كافية ،  
وأشرت الى بعض المعدات القليلة وقلت : استطيع ان ابدأ بهذه  
الآلات فتحذاني الامريكي وقال لماذا لا تبدأ الآن ، قلت له : أنا في انتظار  
مكالمة تليفونية من ناصر لأبدأ على الفور .




والمكالمة ماتأخرتش ، وعلى فكرة المهندس أيوب هو صاحب  
الفكرة ، الخواجا اليوناني لم يكن يفكر في عمل خزان وانما سد لتحويل  
المياه الى الوادي الجديد . اما سيد أيوب فجاء في سنة ٥٥ وقال  
لا ضرورة لتعليق خزان أسوان مرة رابعة وانما نعمل سد جديد



قدامه . طلبه لم يقبل وقتها لانه كانت هناك مشاكل فنية لم تحل عالميا زائد الظروف السياسية وقتها . السدود الترابية لم تكن معروفة وقتها . الحقن من عشر سنوات كان يعتبر اعجوبة وهو دلوقت موضوع مثار عالميا اللي هو الستارة وقتها كمان مكنش يمكن اى مشروع جاد للبلد يتنفذ ، اهم حاجة تميز العمل فى السد هي التفاهم المتبادل والحب بين الناس . مرة واحد عامل كان عنده مشكلة دخل على وقال لى يا ابراهيم يا زكى انت نائب الوزير ، وانا جيت لك يا شيخ اكرامية عشان انت راجل كويس وبيقولوا عليك راجل طيب . انا شعري ابيض صحيح وبيقولوا على عجزت . لكن انا باقوم من النجمة انا عضو كمان فى لجنة العشرين بتاعت الاتحاد الاشتراكي وباسستمرار باديبهم محاضرات . انا عملت كتاب عن زيارة بعثة الفنيين المصريين لليابان والهند والصين فى اواخر سنة ٦٤ عشان دراسة سدود البلاد دى ، المسئولين وافقوا على مشروعى لحل مشكلة النحر فى السد باقامة عدة قناطر على مجرى النيل ممكن تنتج من الكهرباء قد االى حنتتجه محطة السد العالى .

بلدنا زمان كان اسمها البلاصر لكن دلوقت اسمها المحروسة،  
 انا من مديرية قنا ، سنين عشرين سنة ، واسمى قاعود محمد  
 عبد المنعم ، اعمل هنا من سنتين ، كنت باشتغل مزارع  
 فلاح بالفاس ، عامل زراعى ، ناس جت من بلدنا ع السد فجيت ،  
 اول ماجيت اشتغلت عتال . نشيل ونودى . واللى يطلب منا حاجة  
 نوديا له . دلوقت انا مساعد كهربائى تعلمت المفاتيح الاوتوماتيكية  
 وترنسات اللحام ، كنت دايم اقف جنب الصناعى ، وابص عليه ،  
 واساله ، فى الاول خفت من الكهرباء ، واتكهربت كثير ، والكهربا صعبة ،  
 والاسطى ضربنى ، مرة لقيت اللمة مطفية ، ودخلت عليها . .  
 ومعرفش التيار مقطوع مين ، واتكهربت طبعا ، دلوقت بجيب خشب  
 تحتى واقف عليه . الكهربا جبارة ، اتعلمت ازاي اشد درامى بكل  
 قوتى لورا لما اكهرب ، واعزل نفسى فى الحال . الغشيم اول مايكهرب  
 ضرورى يتعور ويمكن يموت عشان بيتلخم وميعرفش يتصرف انا  
 اشتغلت يوم التحويل نفسه ، ما بطلتش شغل .


 أنا بلدياته، من البلاص كمان، اسمى مدبولى عبد المتعم ١٩  
 سنة ، كنت مزارع اجرى ، فى البلد كنت باخد عشرة صاخ  
 الأجر وما بيكفنيش ، هنا باخد ٢٤ قرش وياشتغل عتال .  
 وبصافر عشان اشتغل كهربائى ، باشيل الكابلات ، وراء السكرىائى  
 يشوف بيشتغل ايه ، هنا الناس بتساعد بعض ويتعلم بعض ، وحبى  
 كهربائى .


 ربما أكون أصغر شاب فى الجمهورية يحمل وساما من الرئيس  
 عبد الناصر ، عمرى عشرين عاما ، اخذت الوسام فى العام  
 الماضى ، اسمى صفوت كمال ابراهيم من المنيا ، اقدر اصلح  
 الكراكة الهائلة اللى انت شايفها دى ببساطة ، لكن المسألة الصعبة  
 اللى بتواجهنى فى حياتى هى انى معرفش اغسل ! فشلت . فشلت  
 انى اتعلم غسل الملابس ، لكن باعرف اطبخ ، فى الاسبوع الماضى كنت  
 ياشتغل من عشرة مساء حتى السادسة صباحا ، اللى جابنى السد  
 انى قرىبت حاجات عنه وانا فى مدرسة الصنایع ، السد بتاع البلد كلها،  
 وفيه خبرة هائلة ، وايضا فيه سكن مجانى ، انا سعيت للعمل هنا فى  
 السد ، عارضنى ابي لانى حاكون بعيد ، وكانت دى اول مرة اتفرب  
 فيها . دلوقت ليه اصحاب كثير هنا ، فى الشهور الاربعة الاولى  
 قاسيت من الوحدة ، وبعدين اتعودت ، معرفش اعوم لكن باروح حمام  
 السباحة ، كنت حاغرق مرة ، وانا صغير عشان كده بخاف من الميه  
 جدا ، الخوف يحطم فى الانسان أى رغبة فى التعلم . فى عملى انا  
 شجاع ، جميع الناس بيشهدوا لى بالشجاعة والجرأة ، انا شخصيا  
 معرفش اذا كنت شجاع والا جبان صدقتى . شفت هنا اخطار لا  
 حصر لها ، اول بوم نزلت فيه النفق وقع خلفى مباشرة حجر ثلاثة متر  
 حكب ، كان بينى وبينه اقل من متر ، اصيب عدد من الناس اصابات  
 جامدة ، اليوم الجميل عندى لما مايكونش فى المكن عطل ، انا بتعب  
 نفسيا وجسديا لما اشوف آلة من الآلات واقفة . دلوقت الشغل ماشى ،  
 واقدر اقف معاكم شوية . الحياة العملية هنا خلاف حياتى الاخرى  
 وانا فى المنيا ، اتعلمت هنا اشياء لا حصر لها مكن التخريم ، والكراكات  
 التى لم تعرفها بلادنا من قبل . البلدوزر ، تشغيل المدفع ، الكسارات ،  
 كل هذا اقدر اصلحه واعرف عيوبه ، ومحاسنه وحفظته تماما ،

تعلمت من الروس كثير جدا . أنا ادين لهم ولاخلاصهم في العمل ،  
الناس دى ما بتخيش عننا اى حاجة من معلوماتهم ناس مخلصه في  
عملهم وقلبهم على الشغل وعلينا بصحيح .

كان املى اكون ضابط مهندس ، الامل ده ضاع ، وانا في الاعدادية  
دخلت المطبخ وقلت لوالدى الذى كان يعطينى درس أنا رايح اشرب ،  
فتحت حلة كانت على الوابور واعطيت الوابور نفس علشان البطاطا  
تستوى ، فانقلبت حلة المية اللى بتغلى عليه وحرقت بطنى قعدت في  
السريه شهرين ، ودى غيرت مستقبلى ، وذاكرت ونجحت . لكن  
جه مجموعى في الاعدادية ضعيف مقدرتش اكمل ثانوى ، دخلت مدرسة  
الصنايع بالصدفة ، وانا مش عاجبنى المؤهل المتوسط ، حاعمل معادلة  
بعد ما يخلص السد ، وادخل كليه الهندسة بأى شكل .

عمرى ٢٢ سنة واسمى انور حمزه من أسوان، تخرجت من  
المدارس الصناعية الثانوية وسافرت الى الاتحاد السوفييتى  
للتدريب ، قضيت عشر شهور في فولجراد لاتدرب على تشغيل  
محطة الكهرباء فبعد انتهاء السد لن يبقى في المنطقة كلها غير العاملين في  
محطة الكهرباء ، وهذه المحطة ستحتاج الى ٥٠٠ فنى ومهندس . العامل  
منا كان يرفض انه يرفع الكابل من الارض على أن ده من عمل العتالين ،  
انما كلنا تغيرنا دلوقت . الروسى مهما كان وضعه لا يترفع عن شىء مطلقا  
تعلمنا منهم ايضا احترام المواعيد والنظام . المرأة هناك لها شخصيتها . حاجة  
تانيه ، احنا لازم نبقى زى الجماعة الروس دول ، ليه مانوصلش لمستواهم  
انا شفت عامل روسى النفق انهار عليه ومارضاش يجرى ويسيب الكراكة  
وراه . . . قعد يناضل بجنون واحنا نزعق فيه انه يخرج ويسيب الكراكة  
لكن مارضاش ، وقعد يناور بيها لكن الاحجار كانت بتتكوم عليه وتعجزه  
عن الحركة . فدى ملعقة الكراكة في الارض وقعد ينط بيها لورا لغاية ما  
خرج من النفق . الروس خبراء في كل حاجة حتى في برشمة المسامير  
لازم نوصل لمستواهم . ده بامكاننا . وحننجز بناء السد ! . .



احنا الي عاملين الطرق دي ، الغرب والشرق ، جوزى اشتغل  
فيها ، اسمى ثريا سرحان ، جوزى المهندس على سليم ، أنا  
أكثر واحدة سافت الويل هنا . بقالي ٩ سنين في أسوان .  
وجوزى بيشتغل في السد من أيام ما كان لجنة أبحاث ، كان السد خط  
بالجير الابيض على الأرض كان جوزى بينزل يشتغل في الطريق الاسفلت  
وأنا قاعدة لوحدى في الشقة تحت الخزان ويرجع الساعة ١٢ بالليل .  
كان بيدوب جوزين جزم في الشهر ، وكانت الديابة صوتها طول الليل  
يملأني بالرعب ، كل بناتي دول ابولدوا في أسوان ، كلهم اولاد أسوان .  
بيحبوا أسوان ، ويعتبروا القاهرة شتمة ، وكان اهلي بيهنولي  
الهدوم في طرد بالبوستة ، مكنتش تلافى أو تقدر تشتري جلابيه من  
أسوان ، مفيش محلات ، ولا محل صرمانى ولا رفا ولا حتى عصب  
قصب .

مكنتش تلاقى مواصلات ، بين بيتنا وبين أسوان كان اثنين كلو .  
كنا في ليالى نبات من غير عشا ، ما نلاقيش عيش في أسوان . واحانا  
ما نلاقيش مواصلات علشان نروح نشترى عيش ، الكلام ده من سبع  
ثمان سنين ، كنت في الاول خايبة جدا . معرفش الخس ابرة ولا  
اطبخ ، اتعلمت هنا من النوبيين ودلوقت بعمل حلويات وتورته ،  
وبعدن خيظت هدوم العيال ، ودلوقت بافصل قسائين .

الزئقة علمت الواحدة كل حاجة ، أنا شفت السد حته حته .  
كنت بنزل اللنش وبروح السد واتابع الشغل ، ورحت الانفاق وهى  
بتعمل وكانت الحجارة بتقع جنب رجلى ، رجل جوزى انكسرت مرة  
في الانفاق .

قابلت وكيل وزارة السد وقتله أنا بنيت السد معاه ومع  
جوزى على ، ستات مصر مدلعين قوى . وأنا كنت زيهم ، اختى في  
مصر ما تعرفش تعمل مندبل . جوزى مهندس في السد ومعنى كده  
أنا اللي بتصرف في كل حاجة خاصة ياولادى ، أنا اللي بقابل الناظر  
والمدرسين أنا اللي بروح الدكتور لما العيال تعيا ، كنت لما بنزل مصر  
باحس انى طالعة من مغارة اسمها أسوان .

أسوان كانت جبل وكانت سجن حقيقى ، دلوقت لا يمكن  
اسيب أسوان ، دلوقت المدرسة جنب البيت ، وساكنة في عمارة مجاناً  
فيها جهاز تكييف هواء والبياعين ماليين الشوارع ، والجمعية

التعاونية جنبنا وفيها كل حاجة . واسوان بقى فيها بنزايون ،  
وسيدناوى وعمر افندى وكل حاجة . النوادى ، والجناين والسينما  
والتليفزيون ..

أنا باحب المسرحيات والموسيقى ، وبعد ما شفت الويل فى اسوان  
فى الاول لا يمكن اسيبها دلوقت ، عندى وعند اولادى اسوان احسن  
بلد فى الدنيا احسن من مصر مائة مرة . المشروع كل يوم بيكبر وحياتنا  
بتكبر معاه . متعرفش بكرة حيكون فيه ايه احسن ؟ تعال بعد سنة  
واحدة وانت تشوف العجب .. !

خدمت فى اليمن قبل السد العالى ، دكتور هناك كمان ،  
اسمى عاطف عسل . سنى ٢٩ سنة ، طبيب ونقيب ،  
عالجنا اليمنيين وكنا نطلع فى عربية لعلاجهم فى القرى ،  
المستشفى بتاعنا هنا فى السد فيه جميع الامكانيات ، الادوية الغير  
موجودة فى مصر موجودة عندنا ..



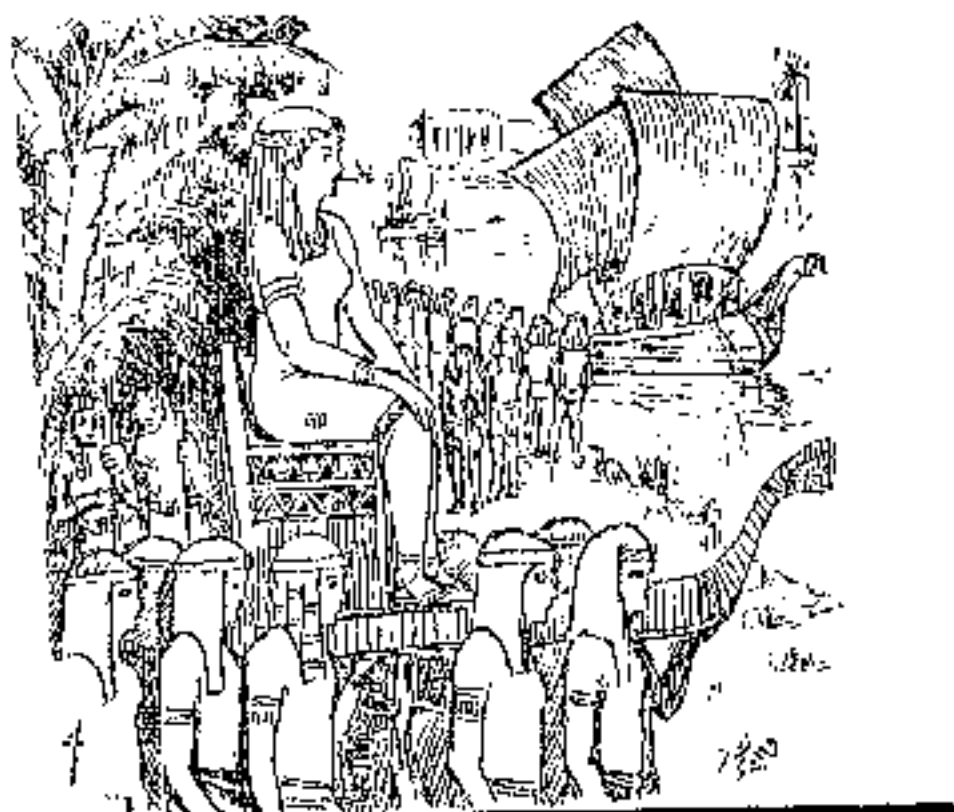
العيادة الخارجية لا تصرف الا الادوية الجاهزة مش زى بقية  
المستشفيات ، معدناش ادوية تركيب ولا امزجة . هنا يعالج المريض .  
وكأنه فى عيادة خصوصى . مفيش امراض معدية هنا رغم الاعداد  
الضخمة ، بنوزع اقراص منع الحمل ببلاش .

فرق شاسع بين وكيل الوزراء اللى هنا فى السد واللى فى مصر ،  
هنا بيحلوا المشاكل وانت قاعد ، تشعر بالمسئولين هنا زى الأب والأخ  
أكثر منه راجل بينفد القانون ، ودى بتنعكس على الكل مبتقاش دى  
روح المسئولين بس ، كل الناس بتبقى كده ، بدليل هنا لما اضطر  
واعطى عامل مريض اجازة بيرفض يأخذ اجازة ويروح الشغل ، فى  
القاهرة غير كده . فيها تمارض . حاجة غريبة هنا قوى ، عشان  
الحكاية دى تتعمم ، الركب على اختيار الرجال والاشخاص ، المهم القدرة .  
الوحش يبقى كويس .. أى حاجة عاوز اشتريها للمستشفى من  
ادوية . ادوات أو اى حاجة فى الحال تيجى لى ، مفيش لجان ومفيش  
تعقيدات ..

أنا آمنت لولا الروح دى ما كانش ممكن الانجازات ودى تتعمل  
بالسرعة غير المعقولة .. احيانا احنا بننتقل لمساكن العمال وبنروح  
فى عربية الاسعاف فى الموقع لو حصل حاجة ، ويخطروننا .. وفى العاده  
المهندس بييجى مع العامل بتاعه عشيان يطعن عليه ، ودى بندى  
احساس ممتاز عند العمال ، أغلب المهندسين هنا شباب والنسب له  
روح ثانية فيها حماس . ودى بتدفع العمال للعمل باستمرار . لايد  
كل الناس يكون عندهم رسالة توعية ، وكل فرد فىنا جنب عمله ،  
دكتور موظف مهندس ضرورى يشتغل فى التوعية ، متس ممكن الانسان  
يتغير من يوم وليلة . ولكن ممكن يتغير .

# الإله القديم







من فوق الربوة العالية كنا نشهد نهريين ..

احدهما صاحب متمرّد أبدا .. والثاني منخفض هادىء مطيع ..  
ومن العيون الحجرية الاتنتى عشر ، كانت المياه الزرقاء والبنية  
تلطم الاحجار ، والبوابات الحديدية والجدران الصخرية فى غضب  
حقيقى ، من اثر معركة حقيقية .. هى اغرب معركة دارت بين الانسان  
والمياه ..

فطيلة آلاف السنين كان النيل يجرى فى طريقه المعهود ، وفجأة  
جاء عدد من الناس والآلات .. وحفروا له طريقا جديدا مجاورا يمتد  
بضع كيلومترات ، وفى مايو ١٩٦٤ اجبروه على أن يتحنى فى هذا  
الطريق ..

وقاوم النهر بشدة .. واستبسل حراسه من الصخور ..  
ولكنه قاوم مقاومة الملوك الذين يقاجثون بانقلاب ، فيقاومون مقاومة  
ضعيفة مندهشة .. اما الحراس ، فانهم دخلوا المعركة بكل ثقلهم ،  
واختلطت اجسادهم الصخرية بدماء القتلى الحارة وهشمت الصخور  
عشرات من الآلات وسحقتها بحنق وسرعة ، ولكنها استسلمت فى  
النهاية وانزوت على جانبي الطريق مهشمة مليئة بالجراح ، منزوعة  
السلاح .. وتقدم الانسان فوق آلاته بعد أن اجبر النهر على أن  
يخضع له .

ولكن النهر بذل محاولة اخيرة ..

فعندما انتهى كل شىء بالحساب والآلة ، بالقلم والورقة ،  
بالصورة والكلمة ، وفتح الطريق امام النهر ، انطلق هادرا غاضبا  
محطما امامه بضع آلات ، سحقتها وقذفها بعيدا الى حراسه ، ثم  
انثنى ليقبض باصابعه على بعض الرجال الذين ظنوا واهمين أن النهر  
قد روض وانتهى أمره .. فحصرهم بين احضانه ، وانطلق بهم -  
مثلا فعل شمشون - نحو مصيره ..

ولأول مرة فى حياته الطويلة ، يستيقظ النهر ذات صباح ليجد

الطريق الى البحر مفلقا بجبال من الاحجار والرمال والصخور . عدوته اللدودة الصخور الجرانيتية ، سيدة النهر التي لا تقهر ، ويرتفع الحاجز يوما بعد يوم ، ناميا فوق قلب النهر الذي اغتصبه ، حتى لا يستطيع النهر ان يناله ، فيلطمه بلا أمل ، وينحول عنه هادرا يبحث عن طريق آخر . طريق جديد . لا يعرفه ، طريق منعه له الانسان .. ولاول مرة تعبر مياهه ارضا لم يخترها هو ..

ومنذ تلك اللحظة التي غابت فيها الشمس عنه ، داخل الإنفاق . تلك الدقائق المرعبة من الظلمة والاسمنت والصخور . تلك الدقائق التي يلطم فيها جدران النفق في حنق ، مجتازا بواباته التي تهرس جسده ، مصطدما بقواعد التوربينات .. منذ تلك اللحظة القصيرة المرعبة من الظلام المفاجيء بعد رحلة شمس طويلة مرحة . نجده متعلق حزينا مجروحا مكسورا ، بلا حراس ، هادئا مسنكينا تحب عسدد لا حصر له من الكبارى الحديدية والخشبية ، وتتمرب قوته خلال آلاف القنوات التي يلعب فيها الصبية عرايا ، ويخترق المدن بلاصوت تسبح فوقه قوارب العشاق ، وتترامى عليه عقود الياسمين وقشور البرتقال .. حتى يدفن نفسه في اعماق البحر الواسع ..

لقد دقوا في قلبه المسامر الصخرية وقذفوا في جوفه اطنانا من الاسمنت والرمال . وضفروا له تاجا من الصلب والصخور ..

\*\*\*

ولكنه ليس هكدا يبدأ ..

فمنذ اللحظات الاولى لحياته يولد النهر صاخبا عنيفا ، فهو يولد من ضجة وهدير ، وجزء من مائة ابيض لامع بالزرقة مليء بالحياة يدور بعنف حول جزيرة صخرية صغيرة ، ومن أسفل تدور بجنون رغوة زرقاء خضراء تزيد منطلقا الى المجهول .. هكدا يولد النهر .. وهكدا يظل يولد كل يوم وأبدا .. وهكدا ينطلق ، مسرعا الى البحر رسول افريقيا العظيم و « .. اعظم مجرى على وجه الارض ، واكثرها وفرة .. » من اكبر بحيرة في نصف الكرة الشرقي ، مارا عبر آلاف الاميال . باعلى الجبال واكبر مدن القارة ، وكافة انواع الطير والحيوان التي تحتوى عليها الجنة .. !

ولم يكن احد يعرف من اين يولد .. وطيلة اربعة الاف سنة كان الناس يبحثون عبثا عن منبعه .. وكان الفراعنة يمتقدون انه

يتبع من أربعة منابع تغذيه عند أسوان .. وذات يوم ، منذ سبعين عاما فقط ، اكتشف ان النيل يبدأ مسيرته بشلالات ريبون الهائلة على مقربة من خط الاستواء .

لقد اثارت اسطورة المنبع هذه خيال المغامرين ، فانطلقوا يبحثون بالحاح عن لحظة ميلاده . واصبحت رحلاتهم الطويلة الى قلب القارة الافريقية هي الاخرى اسطورة امتزجت بالنهر ..

\*\*\*

ان النهر لا يولد من المجهول ..  
فهناك جسر الى الشمس .. سيل من الامطار يكون بين الشمس والنهر معبرا ازليا ..  
ومثلما كان فرعون الها ابن اله .. فان النيل ايضا اصبح الها ابن اله ..

اصبح ابن الشمس !  
بل صار « حابى » .. ابو الالهة ..  
حابى الاعظم .. ان فاضت مياهه ..  
وحابى الاصفر .. ان غاضت ..  
ذلك انه ، ككل الالهة .. كانت له نزوات هائلة .. !  
فكثيرا ما كان يفيض فيغرق الاراضى وينشر الخراب والدمار ..  
او يفيض فتجف الاراضى .. وتنتشر المجاعات والابوثة ..  
ومنذ بضعة آلاف من السنين ، كان كاهن معبد طيبة ، بعهد ان يتسلم رسالة خاصة من كاهن معبد الفاتنين ، يقف في صحن المعبد ، تحيطه هالة من البخور ، ويقرا على الفلاحين المنتظرين بقلق ..  
« ان فرعون امر النيل ان يفيض ولقد اطاعه النهر ، فى اللحظة الخطرة حينما كاد ان يفقد نفسه فى العالم الآخر .. »

وبعد ذلك بالآف اخرى ، كتب عمر بن الخطاب رسالة الى عمرو ابن العاص وطلب منه ان يلقيها فى النيل الذى تاخر فى الفيضان ..  
والرسالة تقول : « من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، الى نيل

مصر • أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا نجر ، وور • عدوته  
الواحد القهار هو الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد : • ويرتفع  
يجريك •• « حتى

ويقول المقرئى ان عمرو بن العاص ألقى بالخطاب فى هادرا  
صنعه له  
فما لبث أن فاض فى اليوم التالى ••

وكان الاقباط يلقون فى النيل بتابوت من خشب يضا  
اصبح من أصابع الشهداء المسيحيين فى اليوم النامن من شهر بتسناق .  
ولا يزيد النيل فى كل سنة الا اذا أقيم هذا العيد ••

انه لتاريخ حافل حقاً بالمآسى والأزمات ذلك الذى يمتد منذ  
السنوات السبع العجاف الشهيرة ••

فعلى كثرة ما عرفت مصر منذ البداية من فترات القحط والمجاعات ،  
لم تمر بها فترة مثل تلك السنوات السبع ، وسبع أخرى مثلها فى  
العصر الاسلامى •• فى زمن المستنصر بالله ، من ٤٥٧ هـ الى ٤٦٤ هـ •

وقد وصف صاحب النجوم الزاهرة هذه المحنة . فقال : « بلغ  
الغلاء العظيم بمصر منتهى شدته الذى لم يسمع مثله فى الدهور من  
عهد يوسف الصديق عليه السلام ، واشتد القحط والوباء سبع سنين  
متوالية حتى أكل أهلها الجيف والميتات وأفئيت الدواب وبيع الكلب  
بخمسة دنانير والهر بثلاثة دنانير • ولم يبق لحليفة مصر سوى ثلاثة  
أفراس بعد العدد الكثير •• ونزل الوزير يوما عن بغلته فغفل الغلام  
عنها لضغفه من الجوع فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها • فأخذوا  
وصلبوا فأصبحوا وقد أكلهم الناس ولم يبق الا عظامهم • وظهر على رجل  
انه كان يقتل الصبيان والنساء وبيع لحومهم ، ويدفن رءوسهم وأطرافهم  
فقتل • وبيعت البيضة بدينار ، وبلغ اردب القمح مائة دينار بم علم  
أصلا •• «

وكان الناس يقفون فى الطرقات فيقتلون من يظفرون به ، وياخذون  
هاله ، حتى أن امرأة قبض عليها وأدخلت الى منزل فيه سكاكين وأتار  
دماء وقطع أهله شرائح من أفخاذها لأنها كانت سميئة ! •

وبعد ذلك بثلثمائة عام بلغت الزيادة فى النهر ٢٤ ذراعا ، وغرقت  
بساتين جزيرة الفيلى وطريق شبرا والمنيا ، وغرقت منازل الحسينية  
والروضة وبولاق • وخرج الناس الى الصحراء ودعوا الله تعالى بهبوطه  
•• فهبط الماء أربع أصابع ثم وقع بعد ذلك وباء رهيب ••

وقد كان فيضان هذا العام أقل الفيضانات التي رأتها مصر منذ أربعين عاما .. وكان يمكن أن تتعرض البلاد لخطر المجاعة .. وتعرض الأرض للعطش لولا المياه التي حجزها السد منذ مايو ١٩٦٤ ..

كما أن فيضان عام ١٩٦٤ كان أخطر فيضان شهدته البلاد منذ خمسة وعشرين عاما .. وكان من الممكن أن تغرق شطآن النيل .. ومعها ذلك الشريط الأخضر الضيق حتى أسيوط .. لولا الحائط العظيم يتأجه من الصليب والصخور ، الذي نهض شامخا وسط النيل في مايو ١٩٦٤ ، ليطوي الى الأبد صفحة الفيضان الدامية من تاريخ بلادنا ..

\*\*\*

لقد كان الكهنة هم مهندسو مصر القديمة .. وكانوا يحتفظون بمقاييس النيل داخل المعابد ، وعليها حراسة قوية ، لا يقرأها غيرهم .. وعلى أساس التقارير التي كانوا يرفعونها الى فرعون ، كان هذا يقدر الضرائب الجديدة على الأرض طبقا لحالة الفيضان القادمة ..

ان أول مقياس للنيل على حدود مصر مازال بالإمكان مشاهدته في الفانتين .. وبالقرب منه يربض السد العالي الآن بأنفاقه الستة متحكما في النيل كما لم يتحكم فيه شيء طوال تاريخه السحيق ، وبدلا من الكاهن ، سيقف المهندس المصري يحسب ويراقب ، ويفتح ويغلق ، ويرسل الخير من أسوان الى مصر كلها دون مراسيم كهنوتية ودون ضرائب جديدة ، ودون صلاة أو تضحيات أو ثيران مذبوحة أو عذارى يلقون في الماء ، فبدلا من ذلك وضع الرجال الصخر والحديد والانفاق والبوابات .. ليأمروا النهر الذي سيطيعهم دون مقاومة .. لكن صدى أغنية الحب القديمة التي كانت تتردد عبر شواطئه الفرحة ، لن يخفت أبدا ..

لأن قاربي مضى فوق الماء  
ورأسي مكلمة بالزهور ..  
هكذا أسرع الى أعمدة المعبد  
والى عديد من الساعات السعيدة  
فالاله العظيم يتأجج  
جعل النهر يأتي في مواعده  
وجعل حبيبتي تأتي الى هذه الليلة  
بفرح كبير  
وغدا .. في ضوء القمر ، سأراها أجمل ا

والحق أن انسان مصر قد فكر منذ القديم فى محاولة السيطرة على ماء النيل ، دون أن يتركه تماما للآلهة .

فقد كانت هناك محاولات لاقامة الجسور فى عهد الملك مينا ، أى منذ أربعين قرنا قبل بدء التاريخ الميلادى ..

ودلت أقدم الحفريات على أن المصريين القدماء تنبهوا الى الاستفادة الى أقصى ما تسمح به تجاربهم - من مياه الفيضان ، فقد كان الفيضان يغير على جانبى الوادى ، ويظلون هم فى قراهم المرتفعة الى أن ينحسر الماء فيزرعوا الأراضى المنبسطة ، ويقيموا السدود حول الوديان والفجوات لكي ينتفعوا بمائها فى زرع محصول آخر .. وهداهم تفكيرهم حينئذ الى اختراع الشادوف ثم الساقية ..

واستنبط المصريون نظام الرى الحوضى منذ آلاف السنين ، وفيه يترك ماء النهر فى فصل الفيضان ليغطى أراضى الحياض بعمق متر ونصف فى المتوسط ولمدة ٤٥ يوما ، حتى اذا ما انخفض منسوب الماء فى النهر ، عادت مياه الحياض الى مجراه بعد أن تكون الأرض قد رويت استعدادا لظما طويلا ، وبعد أن يكون الغرين الذى حمله النهر من هضاب الحبشة قد أمد التربة بخصب جديد ، يعوضها عما فقدته فى العام السابق ..

وكانت الأراضى تنقسم الى أحواض تفصل بينها سدود ترابية تمتد بين جسر النهر وحافة الصحراء ، وكانت تغذى هذه الأحواض ترع يمدها النيل بالماء فى زمن الفيضان ، فاذا جاء الجفاف وهبط منسوب النهر أصبحت تأخذ هذه الترع أعلى من منسوب النهر فلا يصل إليها الماء . وتم تكن هناك قناطر تنظم العلاقة بين النهر والترع اللهم الا سدود من الحجارة تزال سنويا حينما يراد لمياه الفيضان أن تدخل الأحواض .

وكان منظر البلاد فى موسم الفيضان أشبه ببخيرة عظيمة فى قلب الصحراء ، متوسط عمقها متر ونصف ، وتقطعها حوائط سميكة من التراب ، وفى وسط هذا الخضم تقوم القرى ، وكانها الجزر فوق تلال خلقتها الطبيعة أى صنعها الانسان ، ومن هنا كانت القرية المصرية منذ فجر تاريخها كتلة متراسة لايفصل بين بيوت فلاحها سوى الضيق من الشوارع والحارات ، وكانت القوارب هى وسيلة النقل بين القرى فى

موسم الفيضان • ويتبطل الفلاحون في هذا الموسم ، فاذا ماجفت الارض عادوا الى العمل ، وليس لهم الا محصول واحد في السنة أغلبه من الحبوب •

ومنذ عهد محمد علي بدأت محاولة جديدة تمخضت عن السياسة المائية التي تعرف بالرى المستديم • وكانت الخطوة الأولى هي حفر الترغ الصيفية ، وهي ترغ عميقة بحيث لاتجري بمياه الفيضان وحدها بل وبمياه الصيف أيضا ، وهي في هذا تختلف عن الترغ النيلية التي لا تجرى بالماء الا حينما ترتفع مناسيب النهر العظيم ، ولا بد أن تظل لهذه الترغ أعماقها ، اذا أريد منها أن تؤدي الغاية التي أنشئت من أجلها ، وهو أمر شاق فمياه الفيضان غنية بالرواسب تلقي بها في قاع الترغ فيرتفع القاع ، ويتطلب تطهيرا عقب كل فيضان ، يعمل فيه - بالسخرة - أكثر من نصف مليون فلاح لمدة شهرين في كل سنة •• بلا أجر •• وبعيدا عن قراهم وأهاليهم •

هكذا ولدت ترعة الابراهيمية التي تروى اليوم مليون فدان • وتطور الامر بعد ذلك الى شبكة محكمة من الترغ تقابلها شبكة معاملة من قنوات الصرف •

وتطلب النظام الجديد اقامة القناطر والخزانات على نهر النيل لرفع منسوب المياه الى مستوى القنوات من جهة ولتخزين كمية ماء من جهة اخرى •

وبدات سلسلة مشروعات تخزين المياه ورفعها بانشاء القناطر الخيرية •

ففي عام ١٨٣٣ اصدر محمد علي أوامره الى مهندسه الفرنسي لينان دي بلغو بنزع ابحار الاهرام لاستخدامها في بناء القناطر ، ! وكان من المحتمل ان تفقد مصر اهرامها لولا ان وفق المهندس الى اقناع تاجر الدخان بأن اقتلاع الاحجار الجيدة من محاجرها أقل نفقات من نزع ابحار الاهرام ••

وبدات سلسلة القناطر تنتشر على نهر النيل من اسوان الى البحر الأبيض ••

ثم اتضح ان المياه التي تجرى في النيل لا تكفى لبرنامج التحول الى الرى الدائم •• وبدأ البحث عن مكان للتخزين •• وظهرت فكرة

استخدام النهر نفسه كخزان بإقامة سد يحجز المياه أمامه فلا تنفذ منه الا بالقدر الكافي للحاجة ..

ومنذ تلك اللحظة لم يعرف النهر سلاما ..

ففي ١٩٠٢ تم انشاء سد اسوان ، اول سد من نوعه في العالم ، كما كان يوصف وقتها . وكانت سعة التخزين به مليار متر مكعب أصبحت بعد التعلية الاولى عام ١٩١٢ الى مليارين ونصف مليار . ثم أصبحت بعد التعلية الثانية في عام ١٩٣٣ تزيد على ٥ مليار متر مكعب .

وفي عام ١٩٤٥ ، مع ازدياد حاجة البلاد الى المياه ، جرى التفكير في تعلية الخزان للمرة الثالثة . ولكن الفكرة استبعدت لصعوبتها ..

وفي عام ١٩٤٨ ، وضعت خطة لانشاء عدة خزانات للتخزين المستمر والتخزين السنوي كلها خارج حدود مصر .. تفام بأموالنا ، ثم نصبح بعدها تحت رحمة الظروف . فضلا عن انها كانت فاصرة على تخزين المياه الصافية من الطمي فقط . والتي لا يتجاوز مجموعها ١٤٪ من ايراد النهر الكلي .. كان لابد من التحكم الكامل في مياه النهر ..

ويلزم لذلك تخزين طويل الامد وبالتالي سعة هائلة تضمن استقبال الزيادة في سنين عالية متتالية ، وتضمن وجنود رسيدي مخزون من المياه لسد النقص في السنين الواطية اى خلق فطسان صناعى ذى ايراد ثابت معلوم ..

وكان المطلوب هو ان نعترض المجرى بجبل هائل يقف في وجه المياه .. سد عال يسع ١٥٧ مليار متر مكعب من الماء تسترهب الفيضان كله والطمى !

\*\*\*

لقد مضى الآن قرابة العامين على سد مجرى النيل .. ولا زالت أمامنا سنوات حتى ينتهى البناء تماما في السد ..

ان ٢ مليون فدان تنتظر الحصب والمياه لتتحول الى اراض زراعية صالحة تماما للزراعة . ولكننا تمكنا في العامين المنصرمين من ان نحول ٥٠٠ ألف فدان من اراضى الحياض الى رى دائم ، وبعد ان كانت تزرع مرة واحدة أصبحت تزرع ثلاث مرات تماما كأراضى الوجه البحرى .



وقد استغرقت عمليات الحفر ٨ أمثال المسافة بين البحر الأبيض  
واسوان . في الصعيد .. بدأت بـ ١٥ ألف عامل عام ٦٣ وانتهت بـ  
١٠٠ ألف عامل يعملون يوميا في المحافظات ..

لقد دبت الحياة في الوادي الضيق الذي تحده نلال تقبض عليه  
قبضة فكي كلب صيد على الفريسة ، كما وصف كاتبنا الكبير يحيى  
حقي الصعيد في كتابه « دماء وطن » .

وفي هذا الكتاب أورد يحيى حقي صورة رائعة لأهل الصعيد ..

كتب يقول : « ... ووصلت الى آذاننا تلك المقطوعات الحزينة  
العميقة ، تنبعث بين أكوام الحجارة حيث يضطجع الفعلة - وجلهم من  
أبناء الصعيد - حول النار يصطلون اذا كان الوقت شتاء ، أو يتنسمون  
الهواء الطليل اذا كان صيفا ، ويرددون أغاني لهم يتذكرون بها وطنهم  
وأهلهم وأحبائهم .. وهم ساهمون برغم تعب النهار .. كأنما تؤرقهم  
الذكرى ..

« هؤلاء هم الصعايدة : قوم جاءوا من بلاد نائية ، حرها شديد ،  
وزرعها قليل ، تغمر مياه النيل أراضيهم - الخياض كل عام -  
فيبطل العمل ويحلو الاجتماع والسهر على جسور النيل . ثم تتخطفهم  
الهجرة الى القاهرة والاسكندرية وغيرهما من مدن مصر ، فيترك الأب  
أبناءه ، وزوجته ، والأبن أمه وإباه ، والعاشق حبيبته ، طلبا للقامة  
العيش .. حياة محفوفة بالشقاء والترحال والفراق تلهب احساسهم  
وتذكي عواطفهم .. »

... صفحة طواها السد من حياة الصعيد .. لتبدأ صفحة  
جديدة ، يتنفس فيها الوادي الضيق الحياة .. ويعمل فيها الرجال  
السممر طول الوقت .. لا يهاجرون ولا يقطعون الطرق ..  
ولا ينوحون .. !

- ٣ -

ان تاريخ محاولة السيطرة على ماء النيل هو نفس تاريخ مصر  
السياسي . ! مثلما هو تاريخ النهر ذاته ..

لقد ربط النيل بين مصر بوابة افريقيا الذهبية الشمالية ، وبين  
جنوبها الاسطوري الدامي ، وبالمثل أيضا ربط بين شعبها المتناثر على  
طول الشريط الاخضر بالضيق الذي يفصل الصحراء عن المياه .

ومنذ توحدت مصر منذ أكثر من خمسة آلاف سنة على يد القائد الفرعوني مينا ، لم يكف فراغتها أبدا عن وضع زهرة اللوتس المقدسة فوق تيجانهم الموحدة بين الشمال والجنوب ، دلالة على دور النيل الفعال في ربط الشمال بالجنوب .

لقد خلق النيل في مصر أول نظام حكومي في العالم القديم ، بدموقراطية ذكية ، تحكم الوادي كله من طريق مئات من الكتبة والكهنة وجباة الضرائب .

وفي مواسم تحاريفه جمع فرعون الفلاحين ليبنوا الهرم . . وفي مواسم فيضانه جمع الكهنة الفلاحين ليصلوا له ويقدموا مزيدا من الضرائب .

ومثلما ارتبط مصير الفلاح المصري بالنيل ، كذلك ارتبط مصير الصياد الأفريقي بالنهر . .

ومثلما هبطت سفن الغزاة في ابي قير ، كذلك صعدت سفنهم الى اعالي النيل تحمل الموت والمرض .

وعرف النهر أكثر المآسى وحشية ، وامتزج ماؤه بدماء الملايين من البشر ، عبر المستنقعات والغابات والسهوب ، وانهاالت فيه ضربات الخناجر المسمومة والسيياط التركية والرصاص الانجليزى ، الذى انطلق من فوق قمم جبال القمر حتى كوبرى عباس في القاهرة عندما حاصر الانجليز المتظاهرين المصريين وفتحوا الكوبرى عليهم ، وامطروهم بالرصاص . .

وعلى شاطئه الافريقى القربى كانت تدور الى عهد قريب ، اكبر عملية بيع بشرية . . فمن هناك انطلق النحاسون من كل شعب ، يصطادون الزوج ، ويربطونهم بالحبال ويسوقونهم بالمسدسات الى السفن الراسية على ساحل الذهب أو ساحل العاج ، التى تحملهم الى أوروبا وأمريكا وإلى كل جزء من العالم « المحتضر » .

طوال قرون طويلة عاش الفلاح المصري بنفس الطريقة التى عاش بها اجداده . . فهو مازال يستعمل نفس الادوات مثل المحراث والشادوف والنورج . . ومازال يحسب مواعيد البذر ، والحراث والرى بنفس الطريقة التى كان الفلاح القديم يحسب بها . . لكن فلاح مصر الطيب البسيط لم يكن دائما طيبا وبسيطا أمام الشر والعنف ، ففي عام ١٩٣٥م . قامت أول ثورة في التاريخ البشرى كله . . قامت هنا على ضفاف النيل ضد الكهنة والاثرياء . . وصاح الفقراء يومها : « فلتنسقط السلطة ! »

وطوال بضعة آلاف سنة ، عبر اجيال من المهانة والصداب  
والسخرة منذ الهرم الاكبر حتى فاروق سليل محمد على المغامر ،  
ظلت مصر تبحث عن قلبها الممزق .. وعلى طول شاطئ النيل المصري  
من وادى حلفا حتى الدلتا ناح الفلاحون على الناي ليلا .. وناحت  
الفلاحات نهارا وهن يهروالن خلف ابنائهن الذين اخذهم الاتراك او  
محمد على او الانجليز ليحاربوا لهم .. واحترقت السواعد العارية  
بلهيب الشمس وهى تبني بالسخرة .. وتوهجت العيون بلهيب  
البغضاء والفضب وهى تتراجع امام مهندسى الانجليز وعساكرهم ..  
وحمل النوبيون السمر اشياءهم القليلة وغادروا قراهم التى دهمتها  
مياه الخزان ، ليبحثوا عن ماوى فى ركن من اركان البلد التى انكرتهم .

.. حتى عثرت مصر على اوزيريس ذات ليلة ، قاشعلت اول  
ثورة اجتماعية معاصرة فى افريقيا ، ثورة يوليو ١٩٥٢ ..

وبدات صفحة جديدة فى حياة النهر العظيم .

ومثلما طرد الغزاة من الاسماعيلية وبورسعيد .. عادت بهم  
سفنهم من كل مكان على طول الشاطئ الاسمر ..

وعندما تلفت المصريون ليبنوا حياة جديدة .. لم يجدوا غير  
النيل يلجئون اليه .. ولكن ..

ولكن جريدة مثل الفاينانشيال تايمز الانجليزية كانت لا تزال  
تستطيع ان تقول بكل صفاقة : « لو توخت مصر جانب الحكمة لركزت  
اهتمامها فى دراسة برامجها السياسية والاقتصادية دراسة شاملة  
لترى ما اذا كان من الممكن تنسيق هذه البرامج بحيث تتمشى مع  
مقترحات الغرب .. فاذا ما اظهرت مصر انها على استعداد لأن تفعل  
ذلك لن يجد الغرب مانعا من منحها كل معونة ممكنة » ..

وعندما رفضت مصر التبعية ، واعلن دالاس سحب العرض  
الامريكى للمساهمة فى السد لأن : « التطورات التى شهدتها الشهور  
السبعة الاخيرة لم تكن ملائمة لنجاح المشروع » !

وفى وسط النهر - واصلا بين ضفتيه - وبالقرب من المكان  
الذى اقام فيه المصريون منذ اربعة آلاف سنة تمثالا لاله الاخصاب

والخلق ، حارسا للنيل ، انتصب حارس جديد .. هرم رابع .. هو  
أكبر هرم في التاريخ .

وخلق الهرم الجديد روحا جديدة في عصر السياسة المنهية  
والكتل .. فوق جسده الجرانيتي ، نرك العسال حراعه الدامي ،  
واخذ آلات بنائه ليشيد ويعمر وينفذ . ومثلما قدم أبناء الشمال  
للسد عمرهم ودمهم ، أعطاهم النيل تجربة حياة جديدة وكثرا من  
الحكمة التي يحتفظ بها في أعماقه . ولأول مرة في تاريخ مصر يصطلح  
المصريون مع الأجانب ويعملون معهم كتفا لكتف ، وقلبا لقلب ، بمشاعر  
الحب والثقة والأمل ، « بجبارات » على الساطي، تنقل الرجال  
والرمال والصخور .. دون سخرة أو سوط أو شروط !

ومثلما غير الشعب المصري طريقه لبنى حياة جديدة ، غير النهر  
طريقه القديم واختار طريقا جديدا ..

ليس هذا فحسب ..

بل ان مياهه ستعرف جسد أرض جديدة ، لم يلمسها الالم  
منذ خلقت ، بكر عذراء ، سوف ترتعش شفاها المنتظرة حينما تتلقى  
قبلاته ، فينتفخ جسدها المتعطش للحياة حينما تندفع مياه الحمراء  
اليها .. وهناك ستلد الأرض حياة جديدة ورجالا جددا ، هناك في  
ذلك الزواج الذي طال انتظاره آلاف السنين ستزهر الأرض لبنا  
وعسلا وخيرا .. وهناك ولأول مرة في تاريخ مصر كلها يمتلك الفلاح  
أرض مصر الجديدة ، بعد أن حررها أوزيريس ، هذه الأرض ستمتلكها  
مصر كلها . لا بضعة مئات ، لأنها ثمرة نضال الشعب كله وثمر  
انتصاره وثمر انتظاره الطويل ..

وعلى ضفاف النهر الجديد سوف يختفى الظلام ، لأن روحه  
الجديدة سوف تمسح الظلام من القرى مثلما مسحت أنرس دموعها  
بكف حوريس ابنها ومحررها .. وسوف يتحرك النهر من اسوان  
الى الاسكندرية ، من مدينة القراعنة القديمة الى البحر الأبيض ، في  
مهرجان من الضوء والخضرة والفرح .



## أبناء الشمال



كان موعدنا معه في الثامنة مساء بمنزله ..  
ومنذ الخامسة ونحن نتابع الساعات والدقائق في لهفة ..  
فهي المرة الاولى التي تلتقى بها باحد أبناء الشمال في منزله !  
فمنذ اللحظة الاولى التي وصلنا فيها الى اسوان ونحن نلقاهم  
في كل مكان .. رايناهم لأول مرة في شوارع اسوان نشطين مسرعين  
.. وتعلمنا كيف نفرق بينهم وبين السياح .. من مظهر النشاط  
البادى عليهم .. ومن اناقتهم .. !  
فهم يقودون سياراتهم بسرعة ويتحركون بسرعة .. بحماسة من  
يعرف انه هنا لوقت محدد .. وانه سيغادر هذا المكان بعد ان تنتهى  
مهمته .. ومهمته بالتحديد هي أن يلقى مهمته .. ! اى يعد من  
المصريين من يحل محله ..  
وليس سرا أن عددا كبيرا من الخبراء الروس قد عاد الى بلاده  
قبل الوقت المحدد .. فقد تعلم المصريون بسرعة .. فأعلن الروس  
انتهاء مهمتهم قبل الموعد رغم ما تسببه عودتهم المبكرة من ارتباك في  
اقتصاد بلادهم الذى يقوم على خطط محددة بالسنة والشهر واليوم ..  
والمفاجأة التي واجهتنا بالفعل ، هي اناقة الشاب الروسى الذى  
تقابله في المدينة بعد الظهر الاحذية المدببة ، والبنتلونات الضيقة  
والقمصان الملونة .. !  
أما في العمل .. في الستة .. فمن الصعب أن تميز بين الروس  
والمصريين .. في البداية كنا نعلم على غطاء رأس حديدى يرتديه  
بعضهم . ثم تبينا أن معظمهم كف عن استعماله .  
واحيانا كنا نتعرف عليهم من الترامس الكبيرة التى يحملونها  
على اكتافهم عند انصرافهم أو مجيئهم ..

ولكن التعرف عليهم كان صعبا دائما بسبب ملابس العمل التي  
لا تفرق بينهم وبين المصريين . وعندما يعمل الروس فهم يعملون .  
فشكنا تماما في أن « ندردش » مع احد منهم اثناء العمل . وظننا في  
البداية أنهم متحفظون لا يحبون الحديث مع المصريين . ثم تبينا بعد  
قليل أن السبب هو « رابونى » .. أى العمل .

لهذا كان لقاء الليلة مثيرا حقا .

\*\*\*

اقلنا الاتوبيس من الموضع الى كيما .. المدينة السكنية الضخمة  
التي يسكن فيها عدد كبير من الروس ..

النازل عبارة عن صارات ضخمة في صفوف .. كل صف مكون  
من أربع عمارات تفصلها حديقة .. وعلى أبواب هذه العمارات مسابيح  
كهربائية مضاءة .. وتحتها - في مدخل كل منزل - تجمعت حلقة من  
السيدات الروسيات يترترن ..

وعثرنا على مسكن « يفجينى باركوفسكى » بسهولة .. وعندما  
ضغطنا جرس بابه فتح لنا على الفور ..

كان باركوفسكى يرتدى قميصا من تلك القمصان التي تأتي من  
غزة وتباع في شوارع القاهرة وتفضل ولا تكوى ! وكان ينظونه نسبيا  
وحدائمه مديبا . وذلك كله رغم أنه جاوز الأربعين وامتلا شعر رأسه  
بالبياض .. !

وقال لنا مهندس إدارة التخطيط في هيئة السسد العالى :  
باجلستا ! ..

\*\*\*

ولدة ساعتين لم تكن تكف عن الحديث الا لنجيسل ابصارنا في  
انحاء الشقة الصغيرة الانيقة نتأمل محتوياتها ثم نعود الى باركوفسكى  
بسؤال جديد ..

كان أثاث الشقة شديد البساطة : مائدة من الصاج في الصالة  
محيط بها عدة مقاعد . سرير في حجرة النوم وتسريحة صغيرة .  
الصالة بها ثلاث أيدى .. والمطبخ به بوتاجاز .. والحمام به سخان  
ضخم .. نسينا شيئا آخر في حجرة النوم .. قفازين كبيرين للملاكمة



يتدليان من المشجب وأسفلهما على الأرض قضيب حديد من قضبان  
رفع الاثقال التي لم نرها منذ تركنا المدارس .. !

وفي كل منازل الروس التي دخلناها بعد ذلك ، كان قفازا الملاكمة  
وقضيب الحديد ، هما أول شيء تقع عليه عيوننا ..

وانهلنا على باركوفسكى بالاسئلة .. وهو لا يكف عن الابتسام  
والضحك .. ضحكات طويلة صافية يحمر لها وجهه .. وتبرز بها  
ثلاث اسنان ذهبية في فمه ..

ما الذي جاء به من بلاده .. من درجة حرارة تهبط عن الصفر  
الى درجة حرارة لا تهبط عن الأربعين وتصل احيانا - كما لمسنا  
بأنفسنا - الى الستين ..

والاكثر من هذا أن باركوفسكى جدد عقده مرة . وينوى أن  
يجدده مرة ثانية ..

وفي بساطة تامة - دون خطب ودون مجاملات دبلوماسية -  
تكلم الرجل ..

قال ان مصر كانت بالنسبة له دائما أسطورة قرأ عنها الكثير ..  
كانت رؤيتها حلما يداعبه دائما .. ولم يكن من الممكن أن يتحقق هذا  
الحلم أيام فاروق ..

وقال انه مهندس .. ولكل شخص يريد أن يتقدم في مهنته ،  
يبحث دائما عن الخبرة الجديدة . والسد العالي فرصة لا تعوض  
بالنسبة لأي مهندس .. فهو مجهز على مستوى عال . بأحدث الآلات  
وأفضل الاختصاصيين في فروع جديدة . ثم هناك تجربة التليس بالرمال  
وهو تكتيك جديد يطبق هنا لأول مرة على نطاق واسع ..

وقال انه انسان سوفيتي .. والانسان السوفيتي يعتبر بناء  
الاشتراكية في أي مكان في العالم قضيته الخاصة .

كان الاحساس الذي ينتقل الينا عبر مائدة صفت عليها زجاجات  
البيرة بجوار كوم من الكتب والمجلات ، هو احساس بالرضا عن  
النفس .

احساس الانسان الذي قام بواجبه نحو بلاده ، ونحو اخوته  
في الانسانية ، ونحو نفسه ..

احساس ابن الاشتراكية الذى يتسع احساسه بالوطن فيشمل العالم كله ..

ولكن الصورة تختلف قليلا عند كبار الخبراء .

وقد تحدثنا مع الأربعة الروس الكبار فى السد .

الكسندروف كبير الخبراء ، ورادتشنكو نائبه الذى قابلناه قبل أن يعود الى بلاده نهائيا بأيام .. ثم سميرنوف نائبه الجديد .. وأخيرا ماليشيف ، كبير المصممين .

والظاهرة المشتركة بين كافة الخبراء الروس الكبار .. هى أنهم جميعا اشتركوا فى الحرب .. وفى بناء أضخم المشروعات المائية والكهربائية فى الاتحاد السوفيتى .. ثم فى البلاد الاجنبية .

ان تاريخ أى واحد منهم هو نفس تاريخ الاتحاد السوفيتى .. البناء ثم الحرب .. العودة الى التعمير .. مساعدة البلاد الصديقة ..

ولذلك فالخبراء الروس الكبار مقاتلون ..

تشعر بهذا وانت تجلس امام الكسندروف القصر المتين .. ذى الضحكة الهادئة التى تنفجر دائما عن سنة ذهبية .. والذى يتحدث بثقة واعتداد وبساطة ..

وتشعر به امام رادتشنكو ذى العينين الزرقاوين اللكيتين . وامام سميرنوف بوجهه الممتلئ الطيب وشعره الأبيض .. وماليشيف بوجهه الجامد القسماط الذى لا يشئ بشئ من مشاعره .. ورادتشنكو هو أطولهم اقامة فى اسوان .

جاء لأول مرة فى نهاية عام ٥٩ مع أول مجموعة من الخبراء .. وكان عددهم ثمانية . عادوا جميعا واحدا بعد الآخر .. وكان هو آخر من بقى منهم حتى عاد بعد أن قضى ست سنوات فى المدينة التاريخية .

ان الشئ الذى يحسه باركوفسكى ويحركه عاطفيا ويجعله الى جانب حماسه للمكان وللتجربة وللحافز المادى - يجدد عقده للبقاء فى اسوان .. يدركه أمثال رادتشنكو بشكل واع محدد ..

ولا زلنا نذكر كلماته القاطعة المحددة ..

« من وجهة نظر المعيشة أو الترفيه لم يكن العمل هنا ممتعا

دائما .. اننا اذ نعمل هنا لا تدفعنا منافع مادية او مادية .. ففي بلادنا يحصل المهندسون في مستوانا على منافع كثيرة .. اسألوا اذن ما الذى ابقانا هنا ؟ اننا ننظر الى العمل هنا كمسئولية هامة على حكومتنا . ونحاول ان ننجز هذه المهمة على احسن شكل .. ونحن نفهم جيدا اهمية العمل هنا .. اننا ندرك مسئوليتنا « ان القائدة من بقائنا هنا هي نفسها التى تعود من عملنا في بلادنا . فنحن ندرك أهمية مساعدة العرب » .

والرجيل الذى حل محل رادتشنكو اسمه سميرنوف كيريل ايفانوفتش .. يشع وجهه بطيبة الأب . ويحمل على ظهر يده وشما اخضر بارزا ١٠٠

وعندما سألناه عن هذا الوشم قال انه عندما كان صغيرا كان يحلم بان يصير من بحارة الفولجا .. فدق فراشة على يده تشبها بالبحارة ..

وسميرنوف تخرج من نفس المعهد الذى تخرج منه رادتشنكو ولكن بعده بأربع سنوات ، ومر بنفس الطور الذى مر به الأول .. اشترك في المشاريع الضخمة .. وكان مع الكسندروف في مشروع قناة الفولجا .. دون التى جعلت من موسكو « ميناء البحار الخمسة » قزوين والبلطيق والأبيض والأسود وأزوف ..

وكانت فكرة ربط الفولجا بالدون حلما قديما .. تماما كحلم السيطرة على النيل في بلادنا . ففي القرن السابع عشر حاول بطرس الأكبر تنفيذ الفكرة ولكنه فشل .. وكان على الحلم أن ينتظر ٢٠٠ سنة قبل أن يتحقق ..

وعمل سميرنوف مع الكسندروف أيضا في محطة كويشيف ، ونال على دوره فيها لقب بطل العمل الاشتراكي للمرة الثانية .. وكانت الأولى بعد محطة انتهاء قناة الفولجا .. دون ..

وقد كانت محطة كويشيف في ١٩٥٧ أكبر محطة للطاقة في العالم كله .. وقوتها مليونان - كيلو وات ، أما أكبر محطة اليوم فهي كراسنويا رسك في سيبيريا وقوتها ٠ مليون كيلو وات . وفي إحدى عمليات هذه المحطة تم تحويل نهر يانسي في سيبيريا . وتلقى العاملون فيه برقية تهنئة من العاملين في السد .. وارسلوا بدورهم تهنيتهم الى عمالنا عندما حولوا نهر النيل .

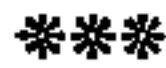
وقد نال الكسندروف أيضا - الذى يتمتع بشهرة عجيبة بين أبناء بلادنا .. لقب بطل العمل الاشتراكى مرتين .

أما ماليشيف فهو أصغر هؤلاء الخبراء الكبار فنا . فهو لم يجاوز بعد الثالثة والخمسين . وعندما قابلناه كان يجلس أمام حرائط مشروع تخزين المياه فى أسوان . وكان آتيا لتوّه من الاتحاد السوفييتى .. وسيعود إليه ثانية بعد أيام ..

وماليشيف نموذج فريد من الخبراء السوفييت .. انه الوحيد الذى يحتم عليه عمله التنقل بين الاتحاد السوفييتى واسوان . عدة شهور فى بلاده وعدة شهور فى بلادنا وهكذا ..

وهو يأتى دائما مع الفيضان .. وكان مجيؤه هذا العام للمرة الثانية عشرة .. وفى العام الماضى ظل فى أسوان تسعة شهور كاملة .

وكان ماليشيف مع السد من قبل ان يبدأ العمل .. منذ اللحظة التى كان فيها فكرة على الورق وكان وقتها مستولا عن معهد فى موسكو اسمه « معهد أبحاث السد » .. وقد قادته خبرته ومستوليته الى أماكن عديدة من الكرة الأرضية .. مراكش والجزائر .. السودان ، أثيوبيا ، الصين ، سوريا .. الولايات المتحدة وكندا والبرازيل ..



ولقد لخص لنا الكسندروف مشاعر هؤلاء الخبراء الكبار ..

وكنا نسأله عن حقيقة اشاعة سمعناها عن مرضه وعن احتمال عودته نهائيا الى بلاده .. وجرنا الحديث الى رأيه فى سير العمل ، ومشروعاته بالنسبة للمستقبل ..

وقال الروسى ذو الضحكة الذهبية ..

« انى اشعر بالرضا التام عن سير العمل .. طول حياتى كنت ابنى الطرق والمنشآت والقنوات ومبجطات الكهرباء .. وعند كل عمل كنت أشعر دائما بالرضا عن نفسى .. وليست لدى الآن سوى رغبة واحدة .. هى أن ينتهى السد بنجاح .. ولست أعلم ماذا سأفعل بعد ذلك .. فهذا من شأن الحكومة السوفيتية » .

قال لنا مهندس مصرى صديق كأنما يمدنا بمفتاح لفهم الروس :  
انهم يعملون كثيرا ويأكلون كثيرا . ويمرحون كثيرا ..  
وليس فى هذا شىء غير عادى . الغريب فعلا هو تكييف الروس  
مع طقسنا الرهيب ..

لقد جاء وقت لم تكن نستطيع الحركة فيه . نلهث بعد دقائق من  
المتى فى الشمس فنهرح الى غرفتنا المكيفة الهواء .. بينما لا يكف الروس  
عن العمل ، برؤوس عارية ووجوه مبتسمة كأنما لم يحدث شىء . ويجرى  
أولادهم الصغار - الذين ولدوا فى الجليد - ويلعبون ببساطة فى عز  
الشمس ..

والشكوى الوحيدة التى سمعناها كانت من رادتشنكو .. وكانت  
تشير الى الماضى .. فقد قال لنا أن العاملين الاولين للمشروع كانا قاسيين  
بدون تكييف ، ووقتها لم تكن كمية الكهرباء القائمة تكفى لادارة أجهزة  
التكييف (كنا نلهث من الحرارة ونحن نكلمه، وكان هناك جهاز ما للتكييف  
فى الحجرة . وجهاز آخر ينتظرنا فى حجرتنا . كيف بالله تكون الحياة  
بدون هذه الاجهزة ؟ ) .

\*\*\*

والمثير فى الروس فعلا هو أن حياتهم فى السد مليئة تماما . رغم  
الجو وندرة وسائل الترفيه . وانهم استطاعوا ان يحتفظوا بقربهم من  
التطورات المختلفة فى كل ميدان فى بلادهم وفى العالم وهم فى هذا المكان  
النائى .

عندما كان فى بيت باركوفسكى اثار انتباهنا كوم الكتب والمجلات  
فوق المائدة الوحيدة بالمسكن .

كانت الكتب بالروسية بالطبع .. بابيت لسنكلير لويس ، عصر  
العقل لايفان يفريسوف ، وهو من كتاب القصص العلمية الخيالية الروس،  
ومجلة النجمة وهى مجلة أدبية يصدرها اتحاد الكتاب السوفييت .. ثم  
اعساد من مجلتى لايف وتايم الأمريكيتين ( كان باركوفسكى يتعلم  
الانجليزية ) .. احدث عدد لمجلة روسية انيقة اسمها مجلة الأدب الاجنبى  
وكانت احدى صفحاتها مطوية حيث كان يقرأ باركوفسكى .. وكان

الموضوع هو آخر مسرحية لآرثر ميلر ، اسمها « كل شيء حدث في فيشي » . . . التي نشرها ميلر في نيويورك قبل ان تنشرها المجلة الروسية بشهرين . . .

وكانت هذه أول مرة نسمع فيها عن هذه المسرحية . . .

وكانت هذه المجلة تضم أيضا دراسة عن فريدريش دورينمات ، وعندما الحفنا على الصديق الروسي الذي يترجم لنا ، ان يعطينا فكرة عن اتجاه الدراسة ، قال انها لا تحكم عليه بأى شيء وانما تبرز الجوانب المختلفة من أدبه فحسب ، وتؤكد على ايجابية الكثير منها . . .

ويحتفظ كل روسي بمكتبة صغيرة في منزله فضلا عن الكتب التي يستعيرها من المكتبات . . .

وللروس في اسوان مكتبتان اساسيتان . واحدة في الغرب ، في النادي الروسي بصحارى . والثانية في الشرق - في النادي الروسي بكيما . . .

والمكتبة عبارة عن كشك صغير في فناء النادي . . . وتضم مكتبة كيما ٢٠٠٠ كتاب و ١٥٠٠ مجلة . وفي النادي يقضى الروس نصف حياتهم في اسوان . . .

فيه صالة طعام كبيرة ، واخرى للاجتماعات ، وثالثة للبياردو ، ورابعة للسينما او الرقص . . .

والافلام والندوات والحفلات لا تنقطع يوما واحدا في هذين الناديين . . .

وقد اتيج لنا ان نشهد احدي هذه الحفلات في احدي ليالي اغسطس الحارة . . .

وبدا الاحتفال بمشهد صغير من ثمانية عشر شخصا في ملابس متماثلة ، عبارة عن بنطلونات زرقاء انيقة وسترات بيضاء ، هو الزى الرسمي لفرقة كيما للموسيقى والرقص والغناء ! . . . ووقف امامهم صديق جديد لنا هو مدير مركز التدريب . . . وغنى . . . ثم وقفت سيدة انيقة جعلت تتحدث بصورة متصلة اكثر من خمس دقائق وصوتها يتردد في حماس غريب . . . وعرفنا أخيرا انها كانت تسرد قصة قصيرة . . . قصة حب . . .

ثم صعد شاب مثل أحمد غاتم عندنا ، يغنى ثم يتوقف ليتحدث ، ويلقى بالنكت ، وبعده غنت إحدى السيدات أغنية التسوق الى موسكو . ثم وقفت سيدة أخرى تتحدث بحماسة ، تدافع عن النساء في مواجهة عالم الرجال وتبرر تصرفات النساء ، وتقول ان النساء اصبحن رائدات فضاء وصحفيات . وصفت النساء في الصالة بحماسة ..

ووقف شاب نحيف يشبه الى حد كبير عبد الحليم حافظ .. دون سمرة .. واذا به يغنى : « يا زهرة في خيالي » .. وغناها أحسن من فريد الاطرش .. وبعده مباشرة دبت الحرارة في الموسيقى وأصبحت الطيلة سيدة الموقف ، ودوى التصفيق في القاعة عندما ظهرت مرجريتا .. الشقراء الجميلة التي تغنى بجسمها كله .. وسرعان ما انهمرت أغاني الفرانكو آراب : فطوما .. ماما قالت لي كسكليا .. ثم بامبو سودانى ..

كل هؤلاء الفنانين يعملون في السد عمالا ومهندسين وفنيين . أغلبهم يغنى هنا لأول مرة في حياته .. ثم يواصل الهواية الجديدة في بلاده .. فمرجريتا مثلا كتبت قصيدة عن السد وغنتها في موسكو ..

والمفاجأة الحقيقية ان هذه الفرقة تضم اثنين من المصريين هما بدوى شاذلى ، والسيد البيدوى .. الاول سائق جرار على جسم السد . والثانى كاتب حسابات فى الجاراج .

\*\*\*

وقبل أن نذهب الى أسوان كانت الصورة التى نعملها فى رعوسنا عن الروس انهم متجهمون عابسون جامدون .. وكانت صورة المرأة الروسية فى رعوسنا هى الصورة المعهودة .. البناء الضخم المربع .. وقد تلاشت الصورتان تماما منذ اللحظة التى وضعنا فيها اقدامنا فى اسوان ..

وفى البداية تصورنا ان عدد السيدات الروسيات قليل فى اسوان .. بعدد السيدات البدينات اللاتى نلقاهن فى الطريق .. ثم عرفنا ان هناك ٨٠٠ امرأة روسية فى المدينة غالبيةهن الساحقة من الفتيات الرشيقات الانيقات ..

وقالت لنا لودا ، المترجمة الشقراء الجميلة ، ان المرأة الروسية لا تختلف عن أى امرأة اخرى . فالنساء هن النساء فى أى مكان فى العالم ..

ولودا فتاة صغيرة لا تتجاوز الثانية والعشرين تخرجت من معهد اللغات الاجنبية في موسكو وتكلم الانجليزية كابنائها .. وعقب نخرجها عرض عليها ان تعمل في موسكو او غانا او الهند او مصر . فاختارت مصر ..

وبعد عام من اقامتها في اسوان تزوجت من مترجم آخر ساب كان معها في نفس المعهد ولكنها لم تتعرف به الا هنا .. وكان الفرح الذي أقيم لهما هو رابع فرح من نوعه تشهده اسوان في سنتين ..

وليس معنى هذا ان كل الروسيات في اسوان يعملن . فالواقع ان عدد العاملات منهن - من سكرتيرات ومترجمات ومدرسات وطبيبات وممرضات - لا يتجاوز العشرين .. وربما كانت الـ ٧٨٠ روسية اخرى في اسوان هن الروسيات الوحيدات في العالم اللاتي لا يعملن .. وهن يقضين وقتهن مثل السيدات المصريات تماما : التراء والعناية بالمنزل والاطفال والثرثرة .. وبعضهن يضج بهذه الحياة فيقمن بدور بارز في الحفلات المختلفة او يتطوعن لآى عمل - مثل ماريونا سمينوفتس ذات الوجه التتارى الجميل التى تدير النادى الروسى فى صحارى ، وكانت فى بلادها كيميائية ..

وكنا نتحدث مرة مع رادتشنكو عن مهندس مصرى كان يسكو من ان زوجته تركته وعادت الى القاهرة ، فقال الحبير الروسى : ان ظروفنا فى هذه النقطة احسن من ظروفكم ، فزوجاتنا لا يستطعن العودة الى موسكو بسهولة بسبب المسافة .. !

\*\*\*

وفى المستشفى الروسى التقينا بست طبيبات روسيات .. والمستشفى يبهرك اول ما تدخله بالنظافة الشديدة والذوق البالغ فى كل مكان .. الجدران ناصعة البياض .. والبلاط شديد اللمعان .. وكل شىء يلمع ..

وأولى الطبيبات واحدة متخصصة فى الامراض الجلدية وبطلة فى التنس وتنس الطاولة .. !

والثانية اخصائية امراض نساء ، قضت سنتين فى مصر ، وتعد مجلات الحائط فى المستشفى وتكتب الارشادات الطبية المعلقة على جدرانه ..



والنائلة ، مدام اوجانسيان ، زوجة أحد كبار المصممين في السد  
وهي ارمنية وطبيبة أطفال وتغنى وتعزف على البيانو ١٠٠  
نم طبيبة أسنان واخرى للاتف والخنجرة . سباحة واخيرة للعيون،  
رسامة !

وازواجهن جميعا يعملون في السد ..

وعندما التقينا بهن كن في اجتماع عقده هيئة المستشفى استعدادا  
للكشف على جميع الاطفال الروس بمناسبة بدء العام الدراسي .

وهيئة المستشفى تجرى خلال العام ٢٧ ألف كشف، فالكشف الطبي  
يجرى على الروسى ثلاث مرات في السنة .. والامراض المألوفة التي  
يصابون بها هي الانفلونزا والتهاب الخنجرة والامراض الجلدية والارتباك  
المعوى عند الاطفال .. وكلها مرتبطة بتغيير الجو . أما الامراض الخطيرة  
فنادرة بينهم . واذا مرض أحدهم مرضا معديا نقلوه فورا الى روسيا .  
وهذا لم يحدث مرة واحدة حتى الآن ..

والطبيبات يذهبن الى الكوافير مرة كل شهر ، ويعملن ست ساعات  
في اليوم ، ويقمن باعداد الطعام في منازلهن أو يتناولنه في النادي ،  
ويخترن موديلات ملابسهن من المجلات الروسية أو المصرية .. !

\*\*\*

والى جانب ال ١٧٠٠ رجل وسيدة هناك ألف طفل روسى في اسوان  
.. منهم ٣٠٠ يذهبون الى المدارس ..

وللروس ثلاث مدارس صغيرة أنيقة .. تضم كل واحدة مائة طفل  
تتراوح أعمارهم بين السادسة والحادية عشرة ، فهم بعد ذلك يواصلون  
دراستهم في روسيا . وفي مدرسة صحارى قابلنا ناظرتها وكانت قد  
قدمت لتوها من الاتحاد السوفييتى .. وكنا في أغسطس وكانت  
سعيدة تماما بشمسنا القوية .. ولم نتصور مدى عاطفة الروس نحو  
الشمس حتى رأينا لوحة كبيرة مصورة في مدخل المدرسة تحمل كلمات  
اغنية اسمها « فلتسطع الشمس دائما » .

وصحبتنا كلارا باخيتان ، وهذا هو اسمها ، الى أحد الفصول ..  
كان الفصل يضم ثلاثين طفلا علق كل منهم على صدره ميدالية صغيرة  
تحمل صورة لينين عندما كان طفلا ..

وقالت لنا كلارا : ان بعض الاطفال يشعرون بنوع من خيبة الأمل ،  
فقبل مجيئهم كانوا يتصورون أنهم سيقابلون في مصر أبطال القصص  
التي قرءوها في بلادهم ( لم نعرف ما هي وربما كانت الف ايلة وليلة )  
والجمال والتماسيح ، ولكنهم لم يروا شيئا من هذا كله .. فيما عدا  
الاهرامات .

- ٣ -

كنا نجلس في أحد المحلات المنتشرة على النيل نتناول طعامنا ،  
عندما لمحنا المترجم الشاب الذي اشترك في مفاصلنا مع الخبراء الروس .  
جالسا الى مائدة بمفرده ، يتطلع ساردا الى مقابر النبلاء النوبيين القدماء  
على الشاطئ المواجه .

كان فكتور كاليجان ساجا نجيلا وسيما في الثلاثين اقرب في عشرينه ،  
وشكل ملابسه الى الفتية الامريكان الذين نراهم في السينما .. ولم نسا  
أن نحدثه فقد شعرنا انه غارق في تأملات خاصة وربما كان يحس بالحنين  
الى وطنه ، وهي عاطفة كنا نحن أيضا - بعد شهرين ونصف - قد بدأنا  
نشعر بها ..

ومرت دقائق .. وفجأة سمعنا صوتا بالقرب من مائدتنا يقول :

- عفوا .. اين قلم انكم تسكنون ؟

واذا هو المترجم الشاب بوجهه شديد الحمرة ..

«دعونا ليشاركنا مائدتنا .. ولم تمض دقائق حتى أصبحنا  
اصدقاء ..»

وفيما بعد أسميناه مستر « فيرى جود » ..

فلم نكن نسأله عن رأيه في شيء خاص ببلادنا الا وهز رأسه قائلا  
فيرى جود ..

عبد الوهاب وام كلثوم ويوسف ادريس فيرى جود ..

وليؤكد لنا انه جاد شرع يغنى مقطعا من انت عمري ..

صدقي سليمان وابراهيم زكي ورجالهما فيرى جود ايضا ..

وكان سعيدا عندما قلنا له : اننا نعجب بيوفتوشنكو .. وانه

« فبرى جود » .. فألقى علينا بضعة أبيات من قصيدته الأخيرة .. وعسى  
عن عمال في سيبيريا لم يجدوا ما يشربونه من الفودكا أو البراندى بعد  
يوم عمل شاق فشربوا الكولونيا .

\*\*\*

والحق اننا لم نقابل في اسوان روسيا واحدا لم يكن شديد الحماس  
البلادنا وعمالنا .. والتغيرات الجديدة التى طرأت على حياتنا .

ان الكسندروف رأى اسوان لأول مرة فى عام ٥٧ ، وكان قد جاء  
عضوا فى بعثة صغيرة من خبراء محطة ستالينجراد الكهربائية .. وكان  
أول ملاحظته وقتها هو كثرة عدد العاطلين فى الطرقات .. أما الآن فلم  
يعد هناك - كما قال لنا - شىء من هذا .. الجميع يعملون والمدينة  
اصبحت اكثر نظافة وتنظيما ..

وعلى مبعده ألف كيلو من القاهرة كان كبير الخبراء الروس يتحدث  
فى تقدير وحماس عن الاتجاه الى تكوين تنظيم سياسى فى الاتحاد  
الاشتراكى ليكون اتحادا للناس الاكثر تقدما .

وكان الحديث مع رادتشنكو فرصة لا تعوض .. فهو قد قضى  
فى بلادنا فترة طويلة . كما انه كان قادرا - فى لحظة مغادرته للبلاد -  
على ان يركز ملاحظاته ..

قال : ان اروع شىء هنا هو ادراك القيادة العربية لمقناتيسية  
العمل . وارتفاع وعيها السياسى .. وهو شىء يستحق صدقى سليمان  
وابراهيم زكى وغيرهما الشكر والتقدير عليه .. فعندما يعمل الجميع كتفا  
الى كنف وبفهم متبادل لا تعود هناك أية صعوبات .

وقال رادتشنكو انه أعجب أيضا بالمصريين الذين لا يشربون الخمر ،  
مما ساعد على تدعيم النظام فى العمل .. بينما لم تعجبه « الجلاية » ..  
وكان سعيدا بالحملة التى كانت الحكومة تشنها ضدها .. ولم يعجبه ايضا  
بقاء المرأة فى البيت ..

والمفاجأة ان رادتشنكو معجب أيضا - بل عاشق - لرقص سهر  
زكى ..

وعندما وجدنا نبتسم سارع يقول : ان رقصها فن حقيقى وليس  
فيه جنس .. أما رقص فرقة رضا فانا لا أحبه لانه مغرق فى الشكلية ..

وفي رأى ماليتشيف ان الشعب المصرى سنغال وذكى .. وهو معجب  
« بالزعماء المصريين الذين يتصفون بالنشاط ويعملون على تطوير حياة  
الشعب » .

وجميع الخبراء والعمال الروس يتنون على العامل المصرى الذى  
يستوعب الخبرة بسرعة غير عادية ..

وقال لاريونوف يورى سيمينوفتش ، المسرف على أجهزة التركب  
فى جسم السد ، ان المصرى « ينكت ويتشاجر وهو يضحك » ..

وكان هناك اجماع حماسى على الافلام المصرية ..

والشئ الذى كان محرجا فى الواقع ان نجد كل من قابلناه من  
الروس مستمتعا بالافلام المصرية .. يعرف اسماء نجومها جيدا ..

ومن الطبيعى ان الروس جميعا لا يحبون طقسنا ..

ولكننا وجدنا واحدا منهم أصبح عاشقا لهذا الجو المرعب .. رجل  
قصير ملىء ، نسخة طبق الاصل من الرسام المصرى المعروف صاروخان .  
قابلناه فى أحد مكاتب التصميمات بالهيئة . وعرفنا أنه فادم جديد ..  
وكان الرجل سعيدا بالحديث معنا وسرعان ما اخرج لنا صورة كبيرة من  
درج مكتبه لسد ووسى اشترك فى تصميمه .. !

وكان الرجل واسمه مايفسكى قادما من جورجيا .. وعندما لاحظنا  
ان عينيه حمراوان قليلا .. وقلنا لعل السبب هو الجو صاح : كلا ..  
جو اسوان اروع من جورجيا بمراحل .. فالحرارة هناك أشد والرطوبة  
هنا لا أتر لها ..

\*\*\*

هل حقق الروس فائدة ما من اقامتهم فى اسوان وعملهم فى السد ؟  
لقد وجهنا هذا السؤال لكل من قابلناه منهم . وكنا نستبعد من  
المناقشة الاجابة التقليدية التى تقول بان زيارة أى بلد جديد لا بد ان  
تكسبك شيئا ..

كنا نريد شيئا محددًا ..

وقد اعطانا رادتشنكو هذا الشئ المحدد ..

قال نائب رئيس الخبراء السوفييت :

« لاشك انى استفدت كمهندس • فهنا خبرة غنية جديدة • تكتيك جديد وتركيبات جديدة ووسائل جديدة •• كما انى استفدت أيضا كماركسى •• لقد اتسعت نظرتنا للأحداث الجارية •• وشهدنا عملية بناء الاشتراكية فى بلادكم •• »

#### - ٤ -

فجأة ، صدمنا سؤال غريب ••

كيف يتفاهم آلاف المصريين مع الالف روسى ؟

وفى البداية لم يكن هذا السؤال يشغلنا كثيرا •• ففى مقابلتنا مع الخبراء الروس كان هناك دائما مترجم بين الانجليزية والروسية •• وفى احيان اخرى كنا نعثر على مصريين يتكلمون الروسية ، تعلموها فى فترات تدريبهم فى الاتحاد السوفييتى ••

ولكن السؤال طرح نفسه علينا فجأة فى ذات يوم حار من أغسطس •• كنا نجلس فى أحد المكاتب الخشبية التى أقيمت على عجل وسط الموقع •• لتختفى سريعا بعد قليل من الوقت تاركة المكان لجبل أو هاوية •• تم تظهر فى مكان آخر •• ككل شيء هنا فى السد ، لا يتبث على حال ابدا ••

وكان بالمكتب مهندس روسى ذو شارب قصير وشعر احمر •• ومهندس مصرى آخر اسمه كمال السيد ••

وولج المكتب عدد من العمال المصريين والروس وقفوا امام المائدة التى يجلس اليها المهندس المصرى •• ودارت مناقشة سريعة حادة •

كنا نحرك عيوننا فى اعياء ونتمنى أن نغلقها ونفتحها لنجد أنفسنا فى غرفة مكيفة الهواء •• وجعلنا نتابع المناقشة فى ملل •• وادركنا ان هناك خلافا حول طريقة نقل احدى الآلات •• ولكننا لم نفهم شيئا آخر •• فقد كان الحديث يدور بسرعة وسرعان ما انتهى وخرج العمال المصريين والروس •• وتبعناهم بعد قليل • ونحن نفكر فى دش الماء المغلى الذى ينتظرنا فى مساكننا •• وعندما سقطت أشعة الشمس الملتهة على رءوسنا وقفنا جميعا ونحن نفكر فى شيء واحد •

حاولنا ان نتذكر الحديث الذى كان يدور امامنا •• وبأى لغة كان يجرى ؟

بالأكيد لم تكن هناك كلمة انجليزية واحدة ..

ولم يكن الحديث يدور بالعربية .

ولا بالروسية .

رغم اننا سمعنا كلمات عربية وروسية .

وبدأنا نفكر .. كيف يتفاهم هؤلاء .. كيف يتفاهم بوميا ١٧٠٠  
روسي مع عشرين ألف مصري اعلييتهم الساحقة لا يعرفون غير لغة واحد  
هي لغتهم القومية ؟

وبدأنا نبحث الأمر ..

اكتشفنا أن التفاهم في المكاتب - وهو ملاحظناه من قبل - يتم  
في سهولة بين المصريين والروس . فالمصريون هنا من فئة المهندسين  
الذين يعرفون الانجليزية . أما الروس فيستعينون بعشرين مترجما  
روسيا يحققون التفاهم بين الجانبين خلال الانجليزية . هذا الى جانب  
بعض المهندسين المصريين الذين يعرفون الروسية وان كان عددهم ضئيلا  
جدا ..

وتبيننا أن مشكلة اللغة سبب متاعب كثيرة في البداية . . فقد  
احضر الروس معهم مترجمين بين الروسية والعربية . ولكن احدا من  
المصريين لم يفهم عربييتهم المستمدة من المعاجم القديمة فضلا عن انهم لم  
يكونوا يعرفون المصطلحات التكنيكية التي لا زالت عندنا بالانجليزية مما  
ادى بهم الى استبدال العربية بالانجليزية في التفاهم ..

أما العمال فكان الوضع مختلفا بينهم . فهم لا يعرفون بالطبع أي  
لغة وسيطة . وكان التفاهم يتم بينهم بالاشارات ..

هذا هو ما قيل لنا .. ولكننا لم نجد بعد اجابة على سؤالنا فلم يكن  
العمال الذين رأيناهم في الكشك الخشبي يستخدمون الاشارات في  
حديثهم .. لقد كانوا « يتكلمون » .

الى ان وجدنا الاجابة على سؤالنا في مكان اسمه مصنع الحقن ..

ومصنع الحقن هو أهم مكان في السد الآن . نقصد عندما كنا  
هناك ، فمن يعرف ما هو أهم مكان اليوم - اذ تعتمد عليه اخطر مرحلة  
في السد وهي النواة الصماء . فالى اعماق بعيدة يجري الآن حقن التربة  
باربع مواد ، اثنتين يؤتى بهما من اسوان هما الطفل والرمل الناعم

الانسين الآخرين يؤتى بهما من روسيا وهما البنتونايت واليومنييت .  
وفى الاعماق البعيدة بقاع النهر تتفاعل المواد الاربعة لتكون الحاجر المنيع  
الذى سيصمد فى وجه مياه النيل مئات الاعوام !

وفى معمل صغير ملحق بالمصنع فوجئنا بسيدة روسية امام الانابيب  
ولعلها هى الفنية الروسية الوحيدة التى تعمل بالموقع ، وأردنا أن  
نصورها فرفضت بشدة . . . وعبتنا حاولنا التفاهم معها . فنحن لا نعرف  
كلمة واحدة من الروسية وهى لا تعرف غيرها . وهب أحد مواطنينا  
لمساعدتنا فقال لها وهو يحرك يديه مشيرا اليها « رابوتى جازيتا صورة  
سواسوا » . . .

وسمحت لنا السيدة الروسية بان نلتقط صورتها . وعندما  
غادرنا المعمل كان هناك جمع من العمال الروس والمصريين أمام احدى  
الآلات . ولحنا بينهم واحدا ضخما الجثة يغرى بالتصوير . وتقدمنا منه  
وقلنا له كلمة السر التى تعلمناها منذ دقائق « رابوتى جازيتا صورة  
سوا سوا » .

وتأملنا الرجل برهة ثم انفجرت اسارير وجهه وقال فى هدوء :  
موجنا صورة سوا سوا . . . وأدركنا أنه قد وافق . . . فالتقطنا له صورة .

ومنذ تلك اللحظة أصبحت آذاننا على الكلمات التى يتبادلها  
المصريون والروس . . . وبدأنا ندون هذه الكلمات فى مفكراتنا . . . لقد  
أصبحنا نشبه البروفسور هيجنز عالم اللغويات المشهور فى مسرحية  
يرنارد شو المعروفة . . .

كانت هناك تلك الكلمة التى تتكرر فى كل جملة مهما كان معنى  
الجملة او الهدف منها : « سوا سوا » . . . وتصاحبها عادة اشارة من  
اليدين يضم فيهما اصبعين الى بعضهما ضمنا شديدا .

والمؤكد اننا لم نكن امام حالة يستخدم فيها الطرفان بضع كلمات  
من اللغتين . وانما كان هناك شىء جديد تماما . . .

خذ مثلا عبارة « مدام كسورة » . . . ومعناها ان السيدة مريضة . . .

ان خمس سنوات من العمل المشترك قد مزجت بين لغتين غريبتين .  
لم يلتقيا من قبل لتوجد منهما لغة او لهجة جديدة فائنة .

والطريف انه فى حالات كثيرة يقدم احد الطرفين بعض التنازلات  
فتؤخذ الكلمة كما هى من احدى اللغتين وتضم الى اللغة الجديدة ، فبائع

اللبن الذي يطوف بالمنشآت السكنية على حماره ينادى عليه بالكلمة الروسية « مولاكو » ويفعل بائع الخبز نفس الشيء فيصيح « خليب » بينما يستخدم الجميع ، مصريون وروس ، كلمة « صديق » بصورتها العربية . وفي مباريات كرة القدم يهتف المتفرجون المصريون بالروسية « دفاى .. دفاى » ويستخدم الروس كلمة نوبية هي « اسومو » .

وهناك ايضا السيارة الروسية الضخمة التي تمتاز بحاجز امامى افقى عبارة عن اسطوانة حديدية كبيرة . وعندما جاءت لأول مرة وراها عمالنا الصعايدة هللوا لها عندما اكتشفوا ان الاسطوانة الحديدية في مقدمتها تبدو كالشارب تماما في وجه الانسان . فاسموها « ابو سنپ » وأصبح هذا هو اسمها الرسمي عند الروس ايضا .. !

\*\*\*

في اخر يوم لنا بالسد قمنا بجولة سريعة في الموقع .. كانمنا لتزود بنظرة اخيرة من المكان .

وامام احدي آلات التخريم وجدنا عاملا روسيا يتابع عمود الآلة في صعوده وهبوطه ، وحوله عدد من العمال المصريين شرعوا في الانصراف عندما اشرفت الساعة على الثانية ، موعد انتهاء الوردية . وظل هسهو واقفا يدير الآلة وعيناه تتابعان حركاتها في استغراق . وانتهزنا فرصة توفقت فيها الآلة لحظة لنسأله :

« هوجنا سوا سوا كلام ؟ »

فاجاب بالروسية : « باجلستا .. »

ولكننا لم نتقدم كثيرا بعد ذلك . كان قادما جديدا لم يتمرس بعد بلغة السد ..

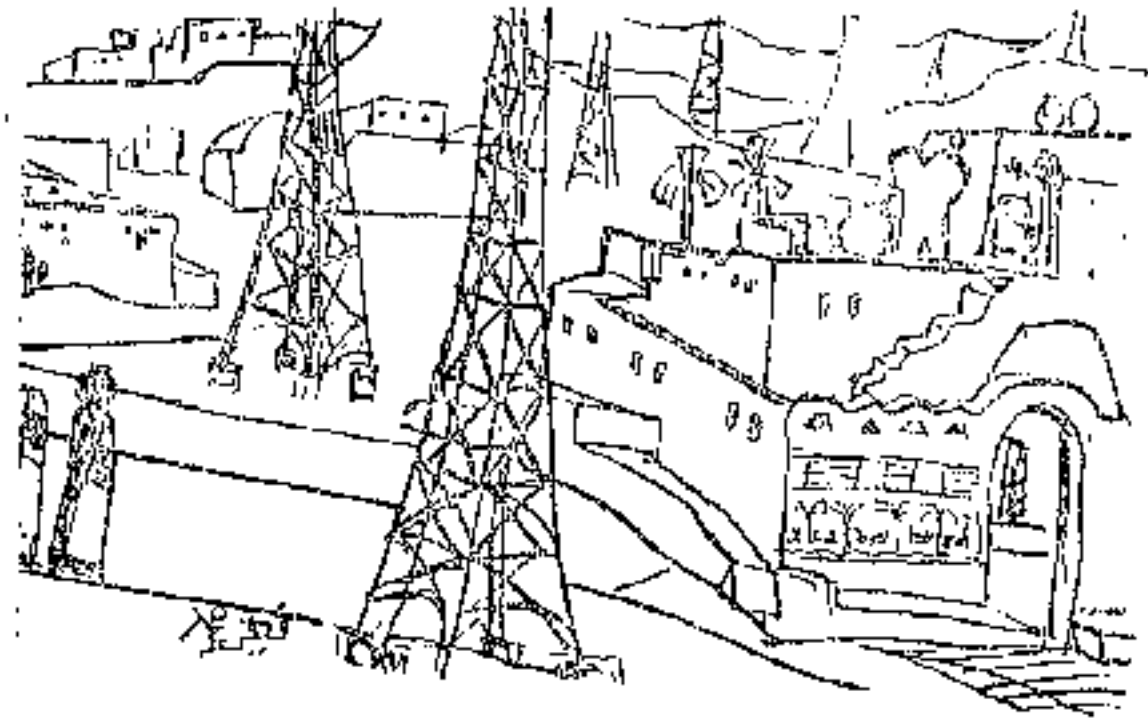
ومع ذلك استطعنا ان نعرف ان اسمه ميخائيل ايفانوفتش وعمره ٣٠ سنة ، وانه من كورسك .. وحاولنا ان نفهم منه لماذا يستمر في العمل بعد انتهاء الوردية .. وكل ما اخذناه هو هزة كتفيه وكلمات غامضة لم نفهمها ..

ووقفنا حائرين .. وهو يدير بصره في وجوهنا المتربة .. ثم ابتسم فجأة ابتسامة عريضة وقال :

« مصرى روسى رابوتى سوا سوا .. »

اجابة كافية .. !





مصباح ناصر



الذى يعمل ويبنى ويفتح الارض فى بلد مثل مصر تخلفت طويلا ،  
يعرف ويدرك انه يواجه عدوا قاسيا ، ليس هو التخلف ، وليس الفقر ،  
وانما الزمن .. ومن أسوان الى ادفو الى نجع حمادى يصبح العدو أحيانا  
الجبل ، ومرة الصحراء ، ومرة الحاجة الى الماء وأحيانا تصبح القضية  
هى النقل أو الموت .. عشرات الاعداء تواجهك فى رحلتك الى خطوط  
الكهرباء ..

والذى قادنا الى هذه الرحلة كلمات سمعناها من الكسندروف فى  
آخر لقاء لنا به .

قال الرجل الذى لم تفلح علامات الارهاق البادية عليه ، فى محور  
ابتسامته الذهبية : « عندما قامت الثورة فى روسيا كان أهم شيء واجهته  
وحققته هو كهربية البلاد .. وعندما تسلمت الكهرباء الى القرى النائية  
لأول مرة كان كل مصباح يضاء يسميه الناس بمصباح لينين . وكان  
يضئ فى بيوت الكادحين . وفى مصر سيمد السد العالى أطراف البلاد  
بالكهرباء . وستضىء مصابيح ناصر بيوت العمال والفلاحين وتغير حياتهم  
كلها .. »

\*\*\*

وخط النور يبدأ من محطة الكهرباء الاساسية لانفاق السد العالى .  
ومنها لا يد وأن تزرع صحراء مصر وأراضيها بكميات من خطوط الكهرباء  
واعمدتها وابراجها فى مساحة قدرها مصر كلها وطولها من أسوان الى  
القاهرة ٩٠٠ كيلومتر لخطوط حملتها ٥٠٠ فولت ، و ٣٠٠٠ كيلومتر  
لخطوط حملتها ١٣٢ فولت .. الى جانب ١٢ محطة محولات تتسلم كل  
محطة كهرباء السد وتبعثرها على أربعة آلاف قرية مصرية لأول مرة فى  
التاريخ .

ان خط أسوان - القاهرة الهائل لا توجد خطوط مماثلة له فى أى

مكان في العالم سوى في الاتحاد السوفيتي . . . وعندما ينتهي منه في سنة ١٩٧٠ سينقل كهرباء تزيد بكثير عن انتاج مصر كله من الكهرباء في عام ١٩٦٣ .

وابتداء من أسوان تسير أعمدة النور غرب النيل حتى تصل الى محطة محولات نجع حمادى فى قرية « هو » ثم تستمر شمالا حتى محطة محولات أخرى فى سوهاج . وفى الطريق الذى ظهرت فيه السيارات لأول مرة عام ١٩٦٢ ، تمر بقرى قديمة بها حمامات رومانية تحت قاع النيل وممرات فرعونية تحت الأرض تفضى الى حمامات أخرى . والى جوارها تقوم مواقع العمل المتحركة . بمهندسين وعمال بعمليات تعرفها أرض مصر وصحرائها المهجورة لأول مرة .

وربما كانت عملية بناء قواعد الابراج . . التى تتحرك لها قوافل العمال والمهندسين من أسوان الى القاهرة . . هى أصعب وأعقد العمليات التى شهدتها السد . وتبدأ المتساكن منذ لحظة حفر «الجور» التى سيقوم عليها البرج . فطبيعة التربة تختلف من مكان الى آخر . هى أحيانا صلبة، وأحيانا أخرى طينية متماسكة وأحيانا ثالثة هشة تنهار جوانبها على الفور .

ولك أن تتصور قافلة صغيرة من العمال والآلات ليس أمامها ولا خلفها غير الصحراء تقطع كل يوم فى وهج الشمس النارية خمسمائة متر . وتغرس عرباتها فى الرمال . فى أماكن لا تصلها مياه لعمل الخرسانة أو للشرب .

وعلى الطريق الى سوهاج سمعنا حكايات هؤلاء الرجال الذين كشفت المصاعب التى يواجهونها عن معادتهم الأصلية . . سمعنا عن الفرق التى كانت تعمل احدى عشرة ساعة متواصلة دون أن تتوقف لتناول الطعام . وتواصل العمل بالليل . فى ضوء كشافات السيارات . وعندما تفرغ البطاريات يشعلون النار فى اغلفة الاسمنت ويواصلون العمل على صوتها .

ولم نكن نتصور فى رحلتنا الى خطوط الكهرباء الممتدة من أسوان الى نجع حمادى وسوهاج أن نلتقى بفنان يعمل فى الخطوط ، متخرج من الفنون الجميلة ، مهنته بناء البيسوت ويشغل كل عقله هدم القرى وبنائها .

هذا المهندس المعمارى اسمه محمد عصام عباس ٣٥ سنة تخرج من

الفنون الجميلة منذ عامين ، وأمضى عاما في لجنة البحوث العلمية لدراسة أشكال القرية في اللجنة العليا لبحوث القرية . وكان رئيسه المرحوم الدكتور أنور المفتى ، ويقول عصام ان هذه اللجنة كانت أول لجنة في القطر تواجه المشكلة مواجهة سليمة . . كان بها ٢١ شخصا من كل مهنة تمت للفلاح بصلة . . وبعد حل اللجنة سعيت للعمل في السد العالي ، كنت أحلم دائما بالعمل في مشروع كبير . . وعندما ذهبت الى خطوط الكهرباء كنت أدرس كل قرية نمر عليها وأصورها وأراجع عليها أفكارى، التي سأعود اليها بعد السد العالي . عندى ٣٠٠ صورة لقرى الصعيد التي مررت بها .

لقد قدم عصام في القاهرة دراسة للماجستير في هدم القرى وبنائها . . والدراسة عن قرية الحراية في الجيزة . درس تعدادها من مائة سنة وتوقعات السكان في المستقبل لتحديد الخدمات التي توفر للقرية في تخطيطها الجديد . . وفي القاهرة أيضا ترك عصام قصة حب عنيفة كتب فصلها الختامي قبل لقائنا به بأيام . . فقد استقالت فتاته من عملها في القاهرة ، ولحقت به في خطوط الكهرباء . .

ويقول عصام : ثم أشهد في حياتى أروع من مسيرة موكب الكهرباء . . كنا متوقعين مشاكل مع الفلاحين ومع الصعايدة لان الخطوط تخترق أراضيهم في أحيان كثيرة . ولكننا فوجئنا بتعاون كامل ورائع . كنا ننقل معسكراتنا كل عشرة أيام تقريبا أو شهر بجوار قرية ونبدأ فى بناء القواعد الحرسانية التي ستقام عليها الخطوط ، تصوروا ان الفلاحين كانوا ييقلعوا الزرع بتاعهم عشان يساعدونا . وكانوا دائما يسألونا فى كل قرية سؤال واحد محدد : الكهرباء حتيجى امتى ؟ أنا سئلت هذا السؤال مليون مرة . كان معايا مرة اثنين مهندسين فى عربية ، وانخرزنا فى الرمل بالقرب من قرية بيت داود مركز جرجا والعربة غرق كل العجل بتاعها ، واحد فلاح شاقنا راح مبلغ البلد . البلد كلها جت من الغيطان ومن البيوت ورفعوا العربية من الرملة وأنقذونا . .

» فى قرية الكرنك واجهنا مشكلة المكان الذي نضع فيه معسكرنا . عمدة البلد كان عنده حنة أرض مش مزروعة ، أعطانا قطعة أرض وأعطانا حجرة مربعة مبنية للمخزن . ومرة مات سواق من عندنا فى حادث أثناء نقل الاسمنت عندما انقلبت العربة . اتلخبطنا معرفناش نعمل ايه ؟ فوجئنا بأن القرية اللي جنبنا احضروا الكراسى والدكك والحصير والمقرىء وجم أهاليها وعملوا معزى فى الجبل وكان شعور رائع من ناحيتهم .

« لا أستطيع أن أحكى لكم عن الترابط غير العادى بين عمليتنا ،  
بناء أبراج الخطوط ، وبين علاقاتنا بالقرى بمئات القرى ومئات الفلاحين  
الذين احتكوا بنا و عملنا بجوارهم . لن أنتهى أبدا ولن تصدقونى . كان  
المشروع وكأنه بتاعهم ينمو فى حضانهم الاكل من عندهم والرجالة من  
عندهم من قلب القرى والعيش والميه . . بدون هذه القرى والكفور  
والنجوع الصغيرة لم تكن نستطيع أن نحقق شيئا . . لقد شعروا بلا كامة  
منا ان السد ده بتاعهم . وان الكهريا احنا مجرد عمال فيها وحتوصلها  
لهم . كان وعيهم بالسد فوق التصور . .

ولن أنسى أبدا رحلة زحف الخطوط فى منحنيات الجبل وفى قلب  
الصحراء وفى حضان الفلاحين . . لن أنسى أبدا وسأعود حتما بعد السد  
العالى لأبنى قرى وأهدم القديم . . أبنى قرى جديدة مضيئة بالكهرباء  
جديدة فعلا بهؤلاء الفلاحين ، .

\*\*\*

ان مصاييح ناصر تسطح بالنور من الآن . . بل منذ اليوم الاول  
لحياة السد . .

فما ان تغرب الشمس حتى تضى آلاف المصاييح فى منطقة السد .  
تحول ليها الى نهار . .

والواقع انه من الصعب أن تميز الليل من النهار فى السد . .

سوى ان السد بالليل يتحول الى عمل شاعرى جميل بلا حرارة  
النهار القاسية . .

وعندما تقترب من الموقع فى أى ساعة من ساعات الليل . . يخيل  
اليك انك وقعت فجأة على مدينة تحتفل بانتصارها . . فأقام أهلها فرحا  
هائلا . .

وقد قضينا فى هذا الفرح ليلة كاملة . . هى أمتع ليلة قضيناها فى  
حياتنا .

- ٢ -

الساعة ١١ . التقينا بسائق عربى كراز ، رحب بأن يستضيفنا فى  
عربته طول الليل لنرى الموقع . السائق اسمه خزاعى وهو يعمل فى  
نقل الطمى من حجر الطمى الى النواة ، فى قلب جسم السد . كابينة

العربة ضيقة نوعا ، لا يوجد مقعد بجوار خزاعي ، وليس هناك غير صندوق حديدي صغير انحسرتنا فوقه .

الساعة ١١:٣٠ . وصلنا الى قلب الموقع . الى جسم السد . عبرناه وانطلقنا في اتجاه مبنى الهيئة ، الانوار شموع رفيعة على أرض مصر كلها ، تمنينا أن تصبح مصر كلها سدا مضيئا . انخرقت العربة الى اليسار ثم الى اليمين ، الطريق ١٤ كيلو حتى محجر الطمي ، الطريق تحتله فافلة من العربات كنجدة حربية ذاهبة لفك الحصار عن كتيبة مقاتلة . الطريق يثز ويضمجر . أصوات كأصوات معركة ضارية تهدد صمت الليل وتلغيه تماما . الانوار تتلاحق على جانب الطريق . بدأ الغبار يتكاثف أمامنا . دخلنا على جيش من العربات الضخمة . نزلنا محجر الطمي ، وهو من ثلاثة أدوار وفي كل دور تقف كراكة فوقها رجل ، كان هذا المحجر جيلا فأصبح هاوية لها جدران مرتفعة . في قلب الهاوية تقف كراكة تنهش الحائط بكباشتها . سائق الكراكة المصري يدوس على أسباه أمامه فتتحول الحجرة التي يقودها الى أي اتجاه يريد ، وهي ثابتة في مكانها ، ويصوب ذراعها الذي ينتهي بالكباشة الى حائط المحجر ويأخذ منه ما يملأ الكباشة ، ويغلقها ، ويدوس على أزرار فتتحول الذراع الى المكان الذي يريد على سطح العربة . يفتح الكباشة فتهمر حمولتها التي تملأ عربة .

أمام منضدة جلس رجل يحصى العربات . وبجواره ورشة لصيانة الكراكات واصلاحها . لا يمكن ارسالها للورش في الموقع لانها ثقيلة جدا وبطيئة جدا في السير . قد تصل الى الموقع في يوم أو اثنين .

امتأدت عربتنا . حرك سائق الكراكة ذراع الكباشة ووضعها في حائط الجبل لتفرضه . وانطلقت العربة . وزحفت مكاننا عربة أخرى .

خرجنا من المحجر . وعدنا في نفس الطريق . لم نتبادل مع خزاعي سوى كلمات قليلة . ضجة العربة والمجهود الذي يبذله خزاعي في قيادتها تجعل الحديث مستحيلا . بين الحين والآخر يقول خزاعي : ميت مسا عليكم . وصلنا بالقرب من جسم السد . عدد من العربات يسد الطريق لأن إحدى العربات غرزت في الأرض المرشوشة بالماء ، فتحنا باب العربة ونزلنا . القمر مضى ولكن نور السد أقوى . انفتح الطريق بعد قليل واستأنفنا السير . دخلنا على جسم السد وممرات التفتيش . استدارت العربة ووقفت وأشار اليها الملاحظ فداس السائق مقدمه على إحدى الدواسات وقبض بيديه على عدد من القضبان داخل العربة وجذبها .

فارتفع صندوق العربة الضخم الى أعلى وأخذ وضعا رأسيا وانهمرت حمولته . وبإشارة أخرى من الملاحظ بدأت العربة تتحرك الى الامام وصندوقها ينزل رويدا رويدا حتى يلتصق من جديد بالعربة .

الساعة الواحدة . انهينا النقلة الاولى . امامنا لافتة كبيرة أضاعتها مصابيح الليل : السد العالى طريق الرخاء . . منزل . ثم مطلع تحشد له العربة كل قوتها لتتقدم ، صوتها وأزيرها مثل الطائرة وهزاتها لا ترحم . بعد عدد من المطالع والمنازل وجدنا أنفسنا أمام مكان كالمقهى . مائدة من الخشب وعدة أزيار ورايو ترانزستور . ورائحة الشاي الجذابة تأتي من الداخل جلسنا نستريح . رفض خزاعي ان يجلس معنا . قال اعمل نقلة الى ان تستريحوا .

الساعة ٢١٥ . اتمنا نقلتين من محجر الطمي ، وتركنا العربة الى جسم السد . البلدوزرات والهراسات تجرى على الرمال والظمى تدك الارض . ممرات التفتيش بدأت تختفى ويرتفع الطمي بجوارها . سائق الهراس شاب صغير اسمه فهمي عبد الله ذكروري . على الهراس كلمات بالطلاء الابيض : عاش عبد الناصر . عيد الناصر هنا معبود حقيقي لبسطاء . والجماهير التي لانعرف الفلسفة . التي تقيس الناس والزعامة بمدى جسارتها واخلاصها . هنا اكتشف الناس عبد الناصر ببساطة ، تعتبره بطلها وحبيبها . وعندما تتحدث عنه تتحدث عن أخ وانسان تهفو الى أن تقابله لسبب واحد . كي تنقل اليه خواطرها وحديثها القلبي الخاص . وفي العادة ترى الجماهير في قائدها شيئا أعلى . . أقل درجة من الله . ولكنها هنا تعتبر عبد الناصر صديقا . تحبه باخلاص . حقيقي وتنصب له .

الاضواء والكشافات معلقة على سقف نفق التفتيش . بين النفق والرمال التي تجلس عليها عشرون مترا تقريبا . في نهاية النفق من ناحية محطة الكهرباء ومن بداية جسم السد من ناحية الشرق عدد من الصعايدة يمهدون الارض بالفئوس ويرشون على الطمي المياه . الجميع يقولون ان العمل بالليل رائع .

كميات الطمي تلقى في النواة . يمر عليها جرار عادى بدون هراس حوالى ٢٠٠ مرة في ساعة واحدة . ثم يسير فوقها جرار يسحب هراسا وزنه ١٠ طن يمر على نفس القطعة ٣٠٠ أو ٤٠٠ مرة ثم هراس آخر وزنه ١٨ طنا ، ورابع وزنه ٢٥ طنا ، وخامس وزنه ٣٥ طنا ، كل هذا ليتحول الطمي الى أرض صلبة .



الساعة ٢ • نحن نسير فوق النواة • خلفنا جزء من جسم السد  
تلقى به الصخور الضخمة • الصخور تحدث قصفا كالرعد وهي تنحدر  
على جسم السد من أعلى وتصطدم بأحجار ضخمة مثلها ، ويتطاير منها  
الشرر • وقفنا لحظة بعد قلب جسم السد • تل هائل الارتفاع من  
الأحجار يواجه أسوان البعيدة هو القسم الخلفى من السد • استمدنا  
لنواجه تلالا آخر يواجه السودان وبحيرة ناصر القادمة • بيننا وبينه يضع  
عشرات من الامتار • الأرض تحتنا صفراء مبتلة • رمال خشنة أتى بها  
التجريف لتكون طبقة من طبقات السد • المواسير الضخمة ملقاة على كل  
جانب • عربية ماز مقلوبة على جانبها • وقد ارتفعت عجلاتها فى الهواء  
وبدا بطنها كبطن سلحفاة خرافية عاجزة مقلوبة على ظهرها •

فى الجانب الآخر بلدوزر يتراجع الى الخلف ثم يندفع فى اتجاهها  
مصوبا سكينه من الصلب العريض الى صندوقها المائل المفتوح ، ينظفه  
من الاحجار الضخمة • ثم دفع نفسه فيها مرة أخرى فارتفعت بمقدار متر  
عن الأرض وتركها • عاد الى الخلف وعادت العربية الى وضعها المقلوب •  
ومن جديد اندفع فى اتجاهها بحساب محسوب ودس مقدمته فى جنبها  
ورفعها مترا • وأوقف البلدوزر سرعته وحبس أنفاسه • وزحف ببطء  
وهو يحمل جانبها على مقدمته • ثم زقها زقة فنية دقيقة وسمعنا رجة  
واعتمدت العربية على عجلاتها من جديد • شامخة متكبرة • وعاد البلدوزر  
الى الخلف • ونزل سائقه ••

جبابرة هؤلاء السائقون .. سائقو الكراكة التى تحطم الجبل ،  
والعربات التى تسير فى المطالع والمنازل الرهيبة • ثم البلدوزر الذى  
يسوى ويرتب الأمر • وآلاف الأضواء • العمل والصوت والحركة ودخان  
العربات والغبار • وأجسامنا تتخدر • ونريد أن نعود الى مكان قريب من  
طريق صديقنا خزاعى •

نرتكن على ماسورة قطرها متر على الأقل وتمتد بلا نهاية • احدى  
أعصاب السد التى تنقل الرمال بالتجريف • ويقترّب منا سائق أسمر  
مترب ، وجهه متغضن كأنه تجاوز المائة . أنه سائق العربية التى انتشلها  
البلدوزر منذ لحظات لقد اجتاز منذ لحظات الطريق من الموت الى الحياة  
وتبدو على وجهه مشاق الرحلة الهائلة • قال ان اسمه عبد العزيز أحمد  
حسن من أسوان • كنت شايل حجارة من محجر الطوب ، قطعة وزنها  
٢٥ طنا ، وبعدين طالع المطلع ، ده عشان أرمى الحجر على السد الامامى ،  
العربية ماز كبيرة • وأنا طالع المطلع الحجر جه على الجنب اليمين • شعرت

بالعربية كلها شوف وزنها قد ايه بتميل هي كمان على اليمين - وأنا في وسط المطلع حاولت • بصيت لقيت العربية بتتقلب ، أول حاجة شعرت بيها الخوف اني أقع تحتها • مسكت في الدركسيون •• ايدي ماتت عليه عشان مقعش تحتها • جسمي اتصلب زي حثة الحديد • وبقيت زي الكرسي ، كل ده مخدش ثواني لغاية ما العربية اتقلبت على جنبها وبعدين على ضهرها • بصيت لقيت نفسي متشعلق جوو العربية ، الدركسيون شمال والعربية اتقلبت على جنبها اليمين • لما العربية نامت خالص حاولت أطلع برة العربية من الشسباك اطرطشت ميتنار من البطارية ، وخرجت وأنا ما زلت مرعوب ، اترميت على الحجر والرملة وأنا مش مصدق ان أنا نجيت •

وسكت السائق • وأشعلنا له سيجارة • بدا عليه أنه يسترجع نفس اللحظات التي مرت به منذ ساعة • بل أكثر من ذلك ، اكتشفنا أنه يسترجع لحظات مماثلة واجهها من قبل • مرة كنت بعدي من تحت كبشة الكراكة بالعربية ، قام زقت العربية زقة نومتها على جنبها ، وبرضه استموت على الدركسيون بتاعى حتى ما اتنطرش في اى ناحية، معرفتش بيحصل ايه لحظتها • قوة خارقة بتساعدنى ومحصلش حاجة ، الكراكة بعدها بدقيقتين مدت ذراعها وسواق الكراكة نشن الكبشة بتاعته ورشقها تحت الصندوق ، وببساطة شديدة وببراعة هائلة اترفعت العربية •

تركناه يستريح وتحولنا الى سائق البلدوزر رقم ٩ الذى عدل العربية قال مشيرا الى البلدوزر : ده يقدر ينقذ أى حاجة • حملته ٤٥ طنا. اسمى شحاته حواس . ٣ سنة من مركز قوص قنا حاصل على وسام الاستحقاق من الدرجة الخامسة من الرئيس ( تقديرًا لحמיד صفاتكم وجليل خدماتكم متحناكم وسام الاستحقاق من الدرجة الخامسة ) • وردية الليل أحسن من وردية النهار • العربية بتغلي في الحر ولازم تتبرد بالمبه كل نقلتين ، لكن طبعا وردية النهار كويسة عشان نوم الليل مايتعوضش •

الساعة ٤ • تركنا هذا الجانب من جسم السد وذهبنا الى بداية الطريق ، في أقصى اليمين • مشى معنا شاب من أسوان جعل يحدثنا عن المدينة وعن فتاة يحبها • وعن ممرات التفتيش • اجتزنا الاضواء المركزة على جسم السد والمعلقة فوق أنفاق التفتيش • على جسم السد مجموعات من العمال تعمل في أشياء متنوعة • عمال لحام ، وبالفئوس ، وملاحظين ، ومشرفين ؛ والعربات تدخل محملة وتخرج فارغة ، والحركة لا تهدأ ، وصديقنا الأسمر لا يكف عن الحديث ، ونحن ننظر في كل عربة نفتش.

عن خزاعي ، وصمم الشاب الأسمر أن نشرب شايًا ، فذهبنا الى نهاية الطريق حيث يقوم كشك صغير يجلس أمامه شاب يغالب النوم ويقاومه . بجوار الكشك بلدوزر صغير جلس في كابينته عامل روسي يقرأ كتابا في ضوء مصباح معلق داخل الكابينة . البلدوزر يفعل شيئا لا تفهمه مع مواسير التجريف . والعامل الروسي يسلى وقته بالقراءة .

الساعة ٥ . بعد أن يئسنا من مقدم عربتنا ، ظهرت عربية أخرى بها زميل لسائقنا - قال ان خزاعي يبحث عنا . ركبنا معه الى محجر الطمي . بحثنا عن عربية خزاعي فلم نجدها . . نزلنا بعربتنا بجوار الكراكة ، وبدأت العربية تمتليء . شعرنا بها تفدك ورسيت وثقلت ونزلت عدة سنتيمترات في الارض . تذكرنا العربية المقلوبة . بحثنا عن أى شيء أمامنا في العربية نمسك به ونستमित عليه حتى لا نضيع فلم نجد . ونحن خائفون هائمون في خواطرننا انطلقت العربية من تحت الكراكة وسارت وخرجنا من المر وعندئذ وجدنا عربية صديقنا خزاعي فانتقلنا اليها .

الساعة ٥:٤٥ . نور الشفق بدأ يظهر ضعيفا . مرة أخرى في المحجر تحت الكراكة .

الساعة ٦ . بدأنا نعود . وما زال الظلام حيا . نغالب النوم بشدة ، أضواء الكهرباء تندمج في ضوء النهار الذي بدأ ينتشر . نصف دائرة من الأنوار الكهربائية تضيء جوانب السد كله . . الشفق أصبح أحمر هلتهبا . قليلا من ناحية الشرق .

الساعة ٦:١٠ . انتهى طريق المحجر . دخلنا على الطريق المؤدى الى جسم السد . قال السائق فجأة : صباح الخير يا جماعة . دلوقت احنا داخلين على جسم السد في آخر جولة لنا . عيون سائقنا حمراء كالدم .

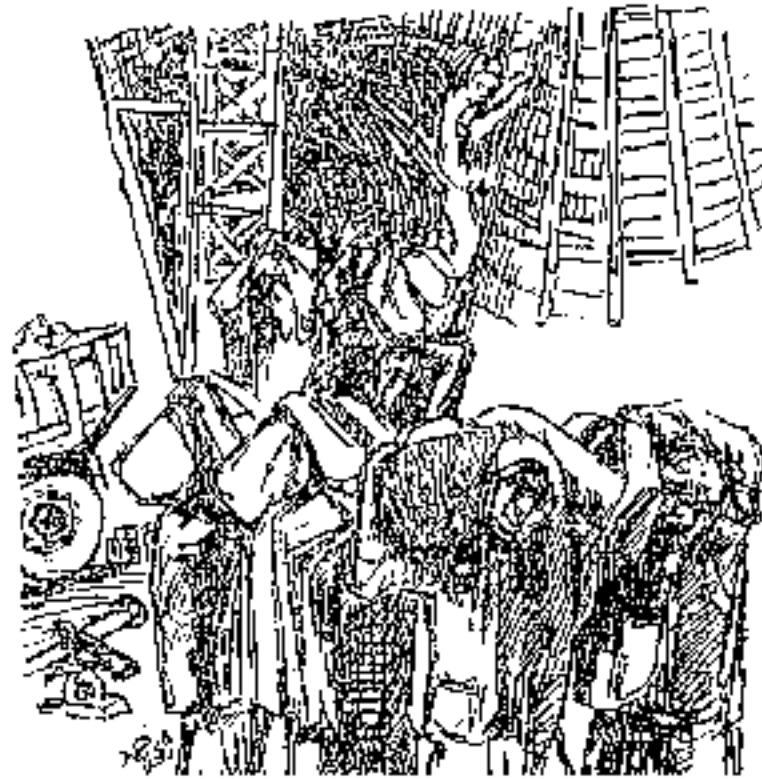
الساعة ٦:٢٠ . فوق النواة ننتظر العربية حتى تفرغ حمولتها . على قمة الطريق تقف العربات الضخمة مصطفة خلف بعضها وبجوار بعضها بنظام وترتيب . منظرها بعد غزوة الليل كقاذفات القنابل الضخمة في الأفلام وقد عادت بعد أن أقت حمولتها .

الساعة ٧ . ودعنا خزاعي وتركناه . سرنا خطوتين ثم توقفنا . لأول مرة نرى السد بصورة مختلفة عن الأيام السابقة . النيل من الجانبين . ومن الشمال والجنوب . وجسم السد واضح كله بكل نتوءاته . وتفصيلاته . رؤية مختلفة عن رؤانا السابقة له ، عن كل يوم كنا نعب

فيه السد من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . السبب أن المكان  
مضى بضوء النهار دون شمس ، دون اشعتها الحارة التي تعمى العين .  
لأول مرة نرى كل شيء واضحا بالتفصيل الشديد . وقفنا لحظة ماخوذين  
ثم سرنا . مسافة كيلو ونصف على أقدامنا في بطن وتمهل . الطرق كلها  
مرشوشة استعدادا لشمس النهار . بدأت الشمس ترسل اشعتها الأولى  
أشعة خفيفة حانية قبل ان تتوحش . الناس في كل مكان . العربات .  
الشاي . باعة البليلة والسجائر والعربات المكتظة بالعمال .

الساعة ٨ . كنا ندق باب حجرتنا ، ونحن نحس بنشوة هائلة  
تجمعت من كل تعب الليل ، ومحنته ! والنوم الذي كنا نتصور اننا  
سنستسلم له على الفور طار وحل محله نسياسا اعادنا من جديد الى  
السد .

# بطل السد





كنا ننقل أقدامنا بأعياء فوق الرمال .. وعلى مقربة كان يقف بعضى الصعايدة .. يملأون المقاطف بالتراب ..

كان منظرهم غريبا حقا .. فنادرا ما كنا نلتقى بهذا النوع من رجال السد .. الذين يقومون بأكثر الأعمال بدائية .. حمل الرمال فى المقاطف ..

ولم أحدهم كاميرا معنا فقال لنا مبتسما عاوز منظر .. أنا بطل السد .. !

وتذكرنا رادنشنكو ، نائب رئيس الخبراء السوفييت ، الذى قال لنا مرة فى ثقة : لولا ايدى الصعايدة ما تمت المرحلة الأولى ..

انه أمر يبعث على الفخر حقا .. ولكن ذلك الصعیدی الذى قابلناه وهو يملأ المقاطف بالرمال ، لم يكن بطل السد .. !

ان بطل السد الحقيقى هو ذلك الذى صنع منه السد ، عاملا فنيا ماهرا .. لأن ارادة التغيير لديه ، التى حولته من عتال الى فنى ، هى التى ستغير وجه بلدنا .. انه هو الذى سيبنى مصر الاشتراكية .. !

وهناك الآن المئات بل الآلاف من هؤلاء تخرجوا جميعا من مدرسة السد ..

\*\*\*

وفى السد مدرسة حقيقية ، مبان وفصول واساتذة وطلاب ..

انه مركز التدريب .. مبنى واسع أبيض ينتصب على مشارف اسوان ، له سور طويل جدا يشبه المدارس الثانوية الحديثة ..

وقصة هذا المركز تبدأ منذ عام ٦٣ .. قبل هذا كان التدريب يجرى فى الموقع نفسه .. وكانت هناك بعثات ترسل الى الاتحاد السوفييتى .. ولكن السد لم يكن يستطيع الاستغناء عن عماله ..

ليتدربوا بعيدا عنه .. وعندما قاربت المرحلة الأولى الانتهاء ، وارتفع مستوى العمل الفني ، كان لا بد من اعداد تدريب منظم للآلاف ..

وكانت طاقة المركز فى البداية ٧٠٠ طالب فى مختلف التخصصات ولكن المباني الجديدة كانت تقام باستمرار داخل المركز .. كلما انتهوا من جناح وتصوروا أن المركز انتهى . يبدأون جناحا آخر ..

واستطاع المركز أن يخرج كثيرا من العمال المهرة الذين حلوا فى الحال مكان العمال الروس .

والسد العالى هو الذى يخطط لمركز التدريب دراساته وعدد طلبته .. تبعاً لاحتياجات العمل .. مثلا فى العام الماضى بدأ العمل فى الحقن .. قبلها طلب السد من المركز أن يدرب ويخرج فرقا من الملاحظين والعمال المهرة لعملية الحقن التى بدأت فى سبتمبر ٦٥ . وبعد ذلك مباشرة طلب من المركز تدريب ١٠٩٠ طالبا : ٨٦١ كهربائيا و ٣٠٥ من الميكانيكيين ، يحتاجهم العمل فى خطوط الكهرباء ومحطة الكهرباء .

وفى المركز ثلاثة مستويات من الدراسة .. الأول لخريجي المدارس الصناعية ومدة الدراسة ستة شهور ، فى المركز ، ثم ٣ فى الموقع على الآلات والعربات الجديدة .. مع الحصول على مرتب أثناء الدراسة عبارة عن ٤ قرشا و ٥ قرشا . يوميا . ثم ٧ عند التخرج .. ومن خلال الدراسة يتم تخريج عمال مهرة وخلال العمل يختار « الملاحظين » .. والملاحظ هو المشكلة الأساسية فى السد وربما فى مصر كلها .. فهو الفنى التكنيكي القادر على التنفيذ وعلى قيادة عمل العمال .. وهذا هو الدور الحقيقى لمركز التدريب فى أسوان ..

ان فصول المركز عبارة عن ورش كاملة .. وهى مقسمة الى مائة وخمس مهنتات تبدأ من اللحام والخراطة والتجليخ الى التخريم والميكانيكا والكهرباء .. ويشرف على الدراسة به مجموعة عجيبة من المصريين والروس ..

المستشار الفنى للمركز ضابط مهندس جاء من القوات المسلحة رأسا . وطابعه مدرس أكثر منه عسكري ، يحمل فى محفظته اليوم صور لعائلته .. كل بناته طالبات فى كلية الهندسة .. اسمه المقدم الحسينى .

وللسوفييت ، وعددهم صغير جدا ، رئيس اسمه كونيخوف فالنتين



هو كبير المعلمين يميل الى القصر ، نحيف ، ظريف ، اصلع ، عيناه صافيتان تشعان ذكاء وخفة دم .

أول مرة رأيناه كان في احدى الحفلات وكان يغنى . . تم عزف على البيان . . واكتشفنا انه عاش في القاهرة عدة سنوات في مدارس تدريب أخرى . وكان جنديا خلال الحرب وعمره ١٨ سنة ودخل برلين مع الجيش السوفييتي وأخذ ستة ميداليات في الحرب . .

قال لنا فالتين : اننا أكثر حماسا منكم ، لدور هذا المركز ، . . فبلادنا تحتاج الى خبرائها لقد أرسلوا لي من روسيا ثلاث رسائل ليسألوني متى أعود ومتى سينتهي عملي هنا .

\*\*\*

ان العمال المصريين الآن يديرون مختلف الآلات والأجهزة والعربات . لقد أصبح المئات منهم عمالا مهرة . .

ولقد تحقق هذا كله في ثلاث سنوات . . ففي ٥٩ عندما بدأت هيئة السد عملها ، لم تجد عمالا فنيين سوى عشرين عاملا بالتمام والكمال . . عبارة عن سائقين !

وقد روى البروفسور ايفان كومزين ، رئيس الخبراء السوفييت السابق ، في كتابه عن السد ، القصة التالية التي حدثت في الأيام الأولى للمشروع :

« في أحد أيام العطلة الاسبوعية ، اتصل بي تليفونيا المهندس كودريا فانسيف ، وأبلغني بصوت غاضب ان أحد الأفراد حول احدى الكراكات الى أرجوحة خيل ! . .

» وسألته : أي أرجوحة تعني ؟

« فأوضح قائلا : ان أحد العمال العرب الذي أخذ دوره في برنامج التدريب منذ بضعة أيام فقط ، قام بتشغيل احدى الكراكات ، وكانت النتيجة ان الماكينة تدور الآن حول محورها بينما هو يصيح بأعلى صوته .

» فاندفعت علي الفور الى مكان الواقعة ، وهناك وجدت ان ما حدث هو أن نحاس مرسى ، وهو من العمال الذين لازالوا تحت التمريض ، قد أحضر أصدقاؤه الى مكان الكراكة . . وأخذ يشرح لهم كل ما يتعلق بالآلة بلهجة الحبير المتمكن من معلوماته . ثم أخذت الأسئلة تنهال عليه ، ويبدو

ان أحد الأفراد قد أعرب عن شكه فيما اذا كان باستطاعة مرسى - فعلا - تشغيل هذه الآلة المعقدة . ودون أى تردد أدار العامل الشاب موتور الكراكة ..

وبدا الحشد الصغير من الاصدقاء ومن لا عمل لهم ، بل والملاحظون أيضا فى الهتاف والتصفيق ، وكان هذا حافزا للعامل الذى أخذ مكانه من الآلة وبدأ فى تشغيل ذراعها .. وفجأة بدأ الكراكة فى الدوران .. واجتاح المجموعة كلها شعور عارم بالفرح ، فأخذت تصيح وتصفر بينما لوح نحاس ، الذى علت وجهه امارات الجدد ، بيده منتصرا .. وبالتأكيد لم يتغير الشعور بالانتصار أو الجدية عند عمالنا الذين يقفون أمام الآلات الضخمة فى السد الآن .. الذى تغير أنهم أصبحوا سادة هذه الآلات !

- ٢ -

بجوار مركز التدريب مباشرة منطقة تسمى السيل . وسبب هذا الاسم انها بقعة منخفضة وخلفها مباشرة الجبل .. وعندما كان المطر يأتى كل خمس سنوات أو سبع كان ينزل فى صورة سيل جارف ، ويتكوم المساء فى هذه البقعة وينمو النخيل ويربى الفقراء المعيز ويعيشون على الحشائش .. حتى جاء السد ..

ومازال السيل القديم بأثاره قائما .. كميات من النخيل والبيوت الصفيح وبيوت رصت أحجارها باليد .. ولكن بجوارها تقوم الآن أكثر من مائة عمارة ضخمة .. كل عمارة بها أكثر من عشرين شقة كل شقة مكتظة بالعمال والفنيين والملاحظين والمصريين والروس ..

وكنا قد ذهبنا الى العمارة رقم ٤٥ لنتلقى ببعض الرجال الذين يصنع منهم مركز التدريب ابطلا للسد .. وكان باب شقتهم مفتوحا ، تتصاعد منه ضجة كالحريق .. وترددت أصوات ضاحكة وخشنة وشابة ومرحة تدعونا لتناول الشاي .

والشاي فى حر أسوان اغراء لا يمكن مقاومته ..

كان « كوز » الشاي يغلى فوق سخنان صغير بالكهرباء بجوار الباب .. وأمامه تجمع عدد من الشبان .. أغلبهم فى نصف ملابسهم وأحدهم كان عاريا تماما ما عدا شورت صغير ..

وفى أقل من ربع ثانية كنا وسط الحريق .. الجميع يتحدثون فى نفس واحد ، وبفم واحد ، الحلقة ثالية جدا هنا ، واحنا مرتاحين من كل حاجة ما عدا الغسيل هو المؤلم وهو المشكلة .. وأغلبهم كان فى حالة غسيل للملابس ونشرها ..

كانوا جميعا « ايرادا » جديدا لمركز التدريب .. لم يمض عليهم عشرون يوما بعد .. ما زالوا يحملون ذكريات القطار الذى جاءوا به .. قال أحدهم .. وأنا جاي فى القطار ليس فى دماغى قفص قوطة من الترحمة ، وقال آخر وأنا بقالى خمسة أيام فقط فى مركز التدريب ، ولسه ما استلمت الشغل فى الموقع ومعايا دبلوم برادة ، وقال الثالث أنا عمري ماجيت أسوان أبدا . وكنت جايب معايا حلة طبيخ آكل منها ولكنها باظت فى السكة ..

شلة رائعة من الشباب .. لم تنبت شواربهم بعد .. كلهم يتكلمون فى آن واحد .. وكان من المستحيل أن نستمر هكذا ولا بد أن نتعارف أولا على الأقل بالاسماء .. وجاءت أكواب الشاي على ورقة كرتون كانت فى الاصل نتيجة قديمة .. وبدأنا نتعرف ..

الاول اسمه عبد العزيز مصطفى عمره ١٨ سنة ، ومن كفر المصيلحة ، دبلوم برادة من شبين الكوم ، متوسط القامة ، أسمر ، ذكى ، متحمس . قال : وصلت الى السيل من أسبوع . وسكنت مع زملائي دول ولم أكن أعرف واحدا منهم من قبل ، وما زال الحنين الى أهلى يبعذبني .. وقاطعه زملاؤه ، وأسرعوا يحضرون الينا عشرة خطابات مغلقة وعليها ورق البوستة وقالوا : أهو كل يوم بيكتب جوابات بالطريقة دى لكن الجواب ده هو المهم .. وضحكنا .. وسكنت هو لحظة وقلنا له هل تستطيع أن تقرأه .. فأجاب بسخاء شديد وبعد تردد ، ممكن ، أقدر أكتب غيره الليلا دى !

الثانى محمود الشريف من برمبال القديمة مركز دكرنس ، ١٩ سنة ، تخرج من قسم البرادة ، وكان الشغل قدامى فى مضرب أرز بينه وبين بيتنا خمس دقائق مشى ، ولكنى رفضت ، عاوز الخبرة فى السد ، بقالى هنا ١٦ يوم ، شفت الانفاق لأول مرة فى حياتى ، أنا أحب الحياة الصعبة ..

وتدخل الشاب الاول صاحب الجواب وقال أنا شفتها من سنتين ،

وبقالي سنة أعرفها وعندى ثقة انها حثنتظرنى ، أجمل حاجة ميا عينيها  
مستاق لها جدا اسمها سناء بس او عوا تكتبوا ان اسمها سناء .. وقاطعه  
محمود مرة أخرى : ما تصدقهوش .. أنا أجيبلكم الفصة اللي جايب منها  
الالفاظ الشاعرية دى .. قصة بين الاطلال !..

وواصل محمود الشريف كلامه .. أنا أحب الحياة الصعبة .. لما  
كنت فى الاعدادية شفيتها لأول مرة وأنا فى الطريق الى مدرستى ..  
اعجبت بها . ببادنا بطرات الاعجاب . ركنت فى بلدنا وسيم جدا ..  
وظلنا سهور بتبادل النظرات فقط ونتغذى عليها دون بلعه واحدة .  
أحيانا ابتسامه يغطيها حياء شديد ، حلوة جدا والله .. ولم يتركه  
ابراهيم عبد الجليل يذمل حديثه فقال ان فصة محمود طويله جدا ..  
ده احنا لنا بتبعناها جوابات باسمه .. أصله زميلنا ولازم نساعده طبعاً  
كنا بتبعنا لها جوابات مع طلبه تانيين قرايبه ، كل الناس كانت عارفة  
أصل أنا بلدياته ، كنت معاه فى البلد ، والدتها كانت عارفة .. شوف  
صورتها ( وأرانا صورة مكتوب عليها : للذكرى أهلى صورتي الى أملى  
وحياتى ومنى قلبى حبيبى الغالى محمود الشريف ) .. وتناقلت الايدي  
الصورة وقال أحدهم دى بتاكل رز كثير ! وترك محمود الصورة لزملائه  
والتفت الينا : عجبنى فيها شعرها وعينيها .. وأديها واخلصها الشديد  
لى .. أجمل بنت فى الدنيا .. ( ثم بعد لحظة وهو فى قمة انفعاله ) أنا  
باحلم أخترع حاجة فى صنعتى لسه ما عملتش !..

النالت أو الرابع ، لم نعد ندرك ، اسمه عبد المنعم عبد المطلب ، ولد  
فى البراجيل وعاش فى العجوزة ، وتعلم فى صناعات شبرا عمره ١٩ سنة  
أبضا .. « وصلت هنا من عشرين يوماً . والتدرب الآن فى المركز لاعمل  
فى خطوط الكهرباء ، بيقولوا فيه طريشه هناك وتعابن ولكن أنا مبيهمنيش  
حاجة .. جيت قبل كده من ٩ شهور فى رحلة مع المدرسة وشفنا السد ،  
ومن يومها قررت العمل هنا ، شفت عربيات الماز الكبيرة والأوناش  
والسفل الجبار .. بلعب ملاكمة ، وعندى سبع اخوات ونفسى أشتغل  
وأترقى لغاية ما أوصل وأبقى مهندس ، متعجبينش بنات القاهرة ،  
خاطب واحدة قريبتى من الفلاحين ، الناس كلها بتقول انى مش  
حتجوزها ، لكن أنا حجوزها . فى وقت فراغى بغسل هدومى ..

وقال ابراهيم عبد الجليل أنا فوجئت لما شفت مدينة السيل وكيفا  
بالنسبة لبلدنا .. أنا صدمت فى حبي وعشان كده مش ححب تانى ..

طموحى أعمل عمل كويس ، فى أى مجال أكون فيه لازم أسد ولازم  
أحافظ على سمعتى •

أكبر هذه الشقة سنا هو أحمد دسوقى ٢٣ سنة ، مواليد اسنا  
وعاش فى القاهرة ، وأخذ الدبلوم من زين العابدين ، وسيعمل فى  
الخطوط ، كان أمامى فرصة للعمل فى القاهرة ولكنى فضلت السد لبدأ  
حياة جديدة ، السد بيعلم الصبر ، أحب أقرأ : لطف حسين والسباعى ،  
وأحب الكتب الحزينة ، واللى فيها ألم ، اتجاوب معاها ، المعذبون فى  
الارض ، بين الاطلال ، فى بيتنا رجل ، احنا مدينين بكل شىء للرئيس  
جمال ، لولا هذا الرجل ما تحققت كل هذه الأشياء العظيمة • • المجد اللى  
بيتبنى هنا فى السد • • حياتنا هنا مشتركة عايشين سوا ، بنطبخ وناكل  
سوا ، وكلنا متفاهمين أعمارنا وميولنا متقاربة • • ساعات بنتخايق على  
غسيل الطبايق ، وعلى ملو الزير ، وعلى اللى ينزل يشتري الجاز لاننا  
عايشين فى خامس دور ، وتخريط البصل بالقرعة ، ميزة الحياة الجماعية  
ان احنا بننسى الجو اللى كنا فيه ، وبنندمج فى الجو الجديد اللى احنا  
داخلين عليه ، احنا بالذات بنعانى من مشكلة الحنين للاهل وللبلد وللحب  
وللحياة اللى عشناها طول حياتنا ، والحياة الجديدة صعبة شوية عاطفيا  
ولكن لاننا مع بعض ولاننا بنشتغل لمستقبل البلد كلها ده بيسهل  
الامور •

أقدمهم فى الشقة - ٢٢ يوما ! - اسمه سعيد عبد ربه ٢٠ سنة من  
مليح مركز شبين الكوم ، براد أيضا ، ويتدرب على تركيب مولدات  
الكهربا ، قال : أنا زرت أول ماجيت خزان اسوان ، الخزان ما اشتراكناش  
فيه احنا المصريين بنفس القدر اللى بنشترك فيه دلوقت فى السد العالى •  
قال أنا ماشفتتس والدى أبدا ، مات قبل أن أولد بشهر ، عمى ربانى  
وتزوج والدتى بعد اقاته ، الجميل ده مش ممكن أنساه أبدا ، لازم اشتراك  
فى تربية اخواتى وحريهم لان عمى كبير فى السن دلوقت ، أنا جيت  
اسوان عشان اقدر أوفر من مرتبى وأساعدهم ، هوايتى سباق الدراجات  
اشتركت فى بطولة المنوفية ، وطلعت الاول ، أنا بطل المنوفية الاول لمدة  
٣ سنوات واشتركت فى سباق الجمهورية وطلعت التاسع فى ١٢٥ كيلو ،  
السبب الوحيد الذى جعلنى لا أحب هو أن عمى كانت صحته ضعيفة  
فكنت آجى من المدرسة اروح على الغيط افلح وبعدين اخذت الدبلوم  
وجيت على هنا •

آخر واحد منهم اسمه صابر عبد المعطى الشريف ٢٠ سنة من

جنزور مركز بركة السبع كنت متوفح اسوان دي قرية بيوتها فى الجبل .  
هاتوقعتش أبدا أن أرى العمارات دي ، ولا المساكن ولا المعدلات التجارية  
الكبيرة ، لما شفت السد فوجئت مرة أخرى . دي أول مرة اشوفه ، اهلى  
اروح بعثة ، جيت هنا عشان الخبرة . عاوز خبرة ، وخصوصا هنا ممكن  
متنوع وكله جديد على بلدنا .

\*\*\*

هدأت الضجة ، وشربنا دور ساي جديد ، وانطلق صوت أم كلثوم  
من الراديو الترانزستور وفتحنا جواب عبد العزيز لنقرأه . .

عزيزتى سناء . .

تحياتى واشواقى الزائدة ارسلها اليك يا عزيزنى بعد سفرى الى  
اسوان بلد السد العالى بلد النضال والكفاح ، من أجل معيشة أفضل  
تحياتى العاطرة أرسلها اليك يا أعز الاحباب، اليك يا هدى الانوار، اليك  
يا عزيزتى أنتى أقدم اسمى آيات التقدير واهديها لك وللأسره جميعها  
والوالدة، سلام كثير اليها والاخت سوسو سلامى اليها ونحيانى وسلامى  
لمحمد وعلي .

وبعد . .

لقد سافرت من بلدكم وأنا كنت فى منتهى الزعل لفرافكم بعد  
ايام سعيدة أيام أحملها دائما هنا فى ذكرياتى واتذكرك دائما يا حديقتى  
العزيزة ولكن أنا قبل سفرى لن أتمكن من لقائكم لانك أنت عارفة  
يا سناء آه ، وأنا لن أريد اى زعل علشانى يكون بينكم وأنا صابر لآخر  
لحظة عشان نتقرب من بعض ونكون حياة سعيدة وأيام جميلة وربنا  
يوفق فأرجو الا تكونى زعلت علشان كده وأرجو أن تتذكرينى دائما  
مثل ما انت دائما فى ذاكرتى وفى تخيلى كل دقيقة يا عزيزتى .

وبعد . .

عزيزتى سناء ، أنا هنا ساكن فى شقة مكونة من ثلاث حجرات  
(لم يقل انه مع أكثر من عشرة زملاء فى نفس الشقة . . ) وصالة ودورة  
مياه والشقة مفروشة . . ! بجميع أدوات المطبخ وعندى مسخان  
بالكهرباء كمان . . ! والحياة هنا كويسة جدا ولا ينقصنى غير رؤياك  
يا عزيزتى . . وأريد أن ألقاك فى القريب العاجل انشاء الله وأنا  
الآن اتقاضى مرتب كويس جدا وأنا فاتح دفتر توفير وعامل جمعية

بحوالى ٣٧ جنيها ، كل شهر ثلاثة جنيهات وأنا سأدع في مكتب التوفير  
٥ جنيه كل شهر غير الجمعية لأنى أتقاضى مرتب شهرى الآن ١٥ جنيها  
لمدة ثلاثة شهور وبعد ذلك ١٨ جنيها وبعد ذلك ٢٢ جنيها أى في شهر  
مايو ١٩٦٦ ( حسب الحسبة بعد استلامه العمل بأسبوع واحد ولمدة  
سنة قدام ) . . . وأنا سعيد جدا ولكن حزين جدا على فراقك يا عزيزتى  
ولكن أتمنى أن أغمض عيني وأفتحها على لقاءك ولكن اننى أطلب منك شيء  
وهو أملى هنا ، وأنا أعيش على ذكرياتى وهو اننى أطلب صورة منك  
ياعزيزتى فى القريب العاجل فى خطاب مهما كلفتك الظروف وفولى لماما  
وهى مش راح ترفض ياسناء أنا واثق من ذلك ، وقبل أن أختتم خطابى  
أقول لك ياعزيزتى اننى أريد ان خطابانى التى ارسلها اليك لا أريد أحدا  
مهما كان قريب أو بعيد . . . أن يقرأها أو يعلم بأى شيء يا عزيزتى .  
وفى الختام تقبلى تحياتى وأشوافى الزائدة اليك يا عزيزتى .

عبد العزيز

العنوان : أسوان - السيل الجديد - عمارة ٥ شقة ١٩  
عبد العزيز مصطفى عمر - أرسلنى الرد على هذا العنوان حتى ولو  
سرقة من وراء ماما . . . !







الصعود



منذ اللحظة التي تبتعد فيها عن السد جنوبا - فى بحيرة ناصر -  
ليس هناك غير الماء والشمس . . . والاطلال !

والاطلال هي بقايا القرى النوبية القديمة التي تتناثر على اليمين وعلى  
اليسار . معظمها تغطيه المياه . والباقي ينتظر دوره فى هدوء واستسلام  
المحكوم عليه بالاعدام .

ومنذ اللحظة الاولى التي تظهر فيها بقايا قرية دابود ، تبدأ تلك  
السلسلة الاسطورية من معابد النوبة .

ان شاطئ النيل من السد حتى اسوان أشبه بصفحات كتاب  
تاريخي ضخمة افتتحت مشروعات المياه .

فمنذ خزان اسوان عام ١٩٠٢ والفيضانات المتتالية كانت مياه  
التخزين تهدد بغمر المعابد بل وكانت تغمرها بالفعل تماما معظم شهور  
السنة دون أن يفكر أحد فى أمرها .

وربما كانت هذه الخزانات والسدود هي المسئولة عن الأبحاث  
والدراسات والاكتشافات التي ارتبطت بعملية انقاذ المعابد ، والتي دارت  
سنوات طويلة اشترك فيها علماء الآثار المصرية من جميع أنحاء العالم .

\*\*\*

ان أول صفحات هذا الكتاب تبدأ من عند اسوان . . من جزيرة فيلة  
أولى ضحايا النيل العظيم .

لقد كانت جزيرة فيلة هي الحد الطبيعي بين مصر والنوبة . وفيها  
أحد مدافن الاله أوزوريس وزوجته ايزيس . وكان سكنها فى القديم  
وقفا على الكهنة .

وبجوار معبد ايزيس تقوم اطلال كنيسة لماريا العذراء . . ا

والواقع أن جميع الحضارات قد توالت على النوبة . من فرعونية  
ويونانية ورومانية وقبطية وعربية وعثمانية ومملوكية .

وربما كان السبب فى ذلك أن النوبة كانت فيما مضى همزة الوصل  
بين مصر وقلب القارة الافريقية ، معبرا للقوافل التجارية ومفتاحا لقبائل  
الغزاة . وكانت فيها مناجم الذهب ومحاجر الديوريت المتين ، وكانت  
ايضا موردا لا ينضب من الرجال للجيش وأعمال السخرة .

فيجوار مقابر البلبيسى - ملوك النوبة القدماء - فى بلانة ، كنيسة  
قديمة اسفلها كنيسة أخرى فى باطن الارض بناها المسيحيون فى عصور  
الاضطهاد الرومانى .

وفى ابريم بقايا مسجد أقامه المماليك أثناء اقامتهم فى النوبة بعد  
هروبهم اليها عقب مذبحه القلعة ، وأسفل قصر ابريم معابد صغيرة من  
مصر الدولة الحديثة ثم كنيسة قديمة بداخلها سرداب يؤدى الى كنيسة  
أخرى .

وفى عنبة الفا مقبرة يرجع تاريخها الى سنة ٢٠٠٠ ق.م .  
ويجوارها مقابر الجنود اليوغوسلاف (اقليمى البوسنة والهرسك وقتها)  
الذين أرسلهم السلطان سليم فى حملة لفتح النوبة .

وفى توشكى مقابر ضحايا المعركة الفاصلة التى دارت بين دراويش  
السودان - بعد استيلائهم على السودان اثر الثورة المهدية - وبين الجيش  
المصرى بقيادة جرانفيل . التى دارت فى يوليو ١٨٨٩ وقتل فيها التجومى  
زعيم الدراويش .

ولكن أروع هذه الآثار ، وأحدثها اكتشافا ، هى ٤٠٠٠ لوحة نادرة  
من العصر الحجري غيرت كل المعلومات الاثرية المعروفة . وأجملها اللوحة  
الصخرية بكورسكو ، وهى أول لوحة يعثر عليها فى العالم ، رسمها  
انسان العصر الحجري القديم منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ولا زالت  
ألوانها ثابتة الى الآن . ووزن هذه اللوحة أربعة أطنان ، وقد سجل  
عليها الانسان القديم رسوما لعجل البحر والسيد قشطة الذى يبدو أنه  
كان يمثل خطرا بالغا على حياته ، فرسم له صورة يسخر فيها منه ، اذ  
رسم غزالا يمتطى السيد قشطة ويسوقه كما يريد . . !

\*\*\*

الا أن النوبة ارتبطت تماما باسم رمسيس الثانى . .

فهو صاحب أغلب المعابد المقامة بها . .

وهو صاحب معبدى أبو سمبل الهائلين . .

إن عدد المعابد التى أقامها رمسيس الثانى فى النوبة تسعة معابد من الشلال الاول الى الثالث . . بل إن آثار رمسيس تمتد من انهار لبنان حتى السودان .

وبينها ينتصب معبد أبو سمبل فريدا فى تصميمه الخارجى بالغاً فى روعته ، يكاد يكون الاثر الوحيد من نوعه فى العالم .

وتتصدر أربعة تماثيل ضخمة لرمسيس واجهة المعبد الكبير . اثنان على كل جانب من المدخل وفوقها حارسها رع - هوراختى الذى يحمل رأس صقر ويضع فوقها قرص الشمس والافعى المقدسة ، وبين أقدام التماثيل الأربعة تنتشر تماثيل الملكة نفرتارى والامراء والاميرات .

وفى أعلى الواجهة يمتد صف من القروود تهلّل للشمس .

فهى فى وضعها هذا أول من يلتقط أشعة الشمس كى يطمئن الملك الذى كان يخشى دائما غروب الشمس . ذلك أن الشمس كانت تغرب دائما فى العالم السفلى . . ولهذا جعل المدخل بحيث تسقط عليه أشعة الشمس الأولى مباشرة . . وهذه هى معجزة المهارة التى حققها الفنانون المصريون القدماء عندما حفروا ١٨٠ قدما فى الصخر ، فى خط مواز لأشعة الشمس ، التى تتسلل أيضا الى داخل المعبد .

وفى الداخل ، على جانبي البهو الرئيسى ، تنتصب ثمانية تماثيل كبيرة لرمسيس فى صورة اوزوريس . . فرمسيس لا يكف أبدا عن التقرب من الآلهة والتمسح بها بل والجلوس بجوارها .

ففى حجرة المعبد الخلفية قدس الاقداس ، يجلس أربعة من الآلهة على عرش ضخم فى كبرياء وقد نحتوا جميعا من الصخر الحى . . آمون رع ، رع هوخارتى ، بتاح . . . ورمسيس ! .

إن أشعة الشمس لا تصل الى قدس الاقداس الا يومين فقط فى السنة هما ٢٣ فبراير و ٢٣ أكتوبر .

ولقد رأينا الشمس تضىء قدس الاقداس بأشعتها لأول مرة فى التاريخ . . فى أغسطس الماضى . . عندما رفع عمال الانقاذ سقف مقر

الآلهة العتيده . وظهرت لأول مرة فى جلاء تام الالوان الشاحبة التى  
استخدمها الرسامون منذ أكثر من ٣٢٠٠ سنة . .

ومن قدس الاقداس تقودنا الارضية البالية الى أصغر القاعات التى  
يستند فيها السقف الى أربعة أعمدة مربعة حفرت عليها صور رمسيس  
مع الآلهة وهو يقدم القرابين الى ايزيس ومين - آمون . . والى نفسه . . !

فبينما كان رمسيس يبنى أبو سبيل اكتشف فى نفسه الها جديدا  
. . فشرع يجرى تعديلات فى نقوش المعبد . . وحشر نفسه حشرا بين  
الاله مين آمون وايزيس وبين آمون وموت . وكانت موت جالسة على  
مقعد خلف زوجها ، فجعلها المثالون تقف ليفسحوا مكانا لرمسيس .

وتنبض القاعة الثالثة بصور الحركة والحياة والحرب . . فهنا يبدو  
رمسيس مع صف من بناته العديدا يعزفن على اداة موسيقية ، وفى  
صورة أخرى يبدو رمسيس فى ضعف حجه . يضرب مجموعة من الاسرى  
الآسيويين على رؤوسهم بصولجانه . وتتتابع النقوش التى تروى تفاصيل  
معركة قادش التاريخية التى افلت فيها رمسيس من هزيمة محققة  
بشجاعته وجسارته .

ويروى أحد نقوش هذه المعركة الفصل الختامى منها . . عندما  
عقدت أول معاهدة دفاع مشترك وعدم اعتداء فى التاريخ . . . !

فقد أرسل الحيثيون وفدا لعقد المعاهدة التى نصت على ألا يغزو أحد  
الجانبين الآخر . . وأن يتبادلا المساعدة فى حالة وقوع عدوان على أى منهما  
من دولة أجنبية . . . !

\*\*\*

وعلى مبعنة خطوات من المعبد الكبير يقوم معبد أبو سمبل الصغير . .  
الذى أقامه رمسيس تكريما لنفرتارى أحب زوجاته اليه .

ويتصدر رمسيس واجهة المعبد الصغير بالمثل . . ولكنه يقف هذه  
المررة وبين تماثيله الأربعة تماثلان لزوجته - لأول مرة فى مثل حجه -  
بردائها الشفاف وشعرها المتدلى على كتفيها . . وقرص الشمس على رأسها  
. . وحول سيقان التماثيل الضخمة يقف أطفال صغار فى ارتفاع الركبة  
. . وفوقهم نقش يقول للعالم : « ان رمسيس جعل هذا المعبد فى شكل  
حفر فى التل كعمل خالد فى أرض تاستين ولم يصنع شئ مثله من قبل . »

لقد مات رمسيس بعد حياة طويلة استمرت ٩٢ سنة ..  
وعلى سيقان تماثيله حفر الكثيرون بعده اسماءهم طمعا في الخلود ..  
ولقد تحقق لهم ما أرادوا ..

فطوال قرون .. كانت الرمال تغطي المعبدتين وتحمييهما من مختلف  
الغارات والاعتداءات التي اطاحت بالكثير من الآثار ، بل ظلا مجهولين  
تماما من العالم حتى تم اكتشافهما في عام ١٨١٢ ! ..

ولكن .. هل يقوم مئات العمال المصريين ومهم خبراء من جميع أنحاء  
العالم بانقاذ المعبدتين والصعود بهما فوق الجبل .. كى يضمنا الخلود  
الأبدى لتلك الوجوه الضخمة التي تبتسم للشمس والرمال فى دعة وثقة  
تثيران الاستغزاز ؟ ..

كلا .. لسبب بسيط تماما ..

فان من يقف أمام هذه الرعوس الضخمة لا يملك الا أن يفكر فى  
الخمسة والعشرين الف عبد مصرى ، الذين نحتوا هذين المعبدتين فى  
الجبل وعملوا بصورة متصلة لمدة ثلاثين سنة ، ليذيبوا فى أصابعهم ، التي  
كانت تتحسس الصخر فى حب ، كل ما كانوا يعانونه من ذل وعبودية ،  
وليتحدوا العالم بمعجزة صخرية لا زال يجهل كيف حققوها بوسائلهم  
البدائية المتخلفة ..

ان المهندس العادى عندما يضع تصميم اى بناء ، يضعه على ارض  
خلاء يستطيع ان يراها ويعاينها .. فيضع الخطوط والتصميمات ثم يبدأ  
البناء ..

ولك ان تتصور اناسا يخططون ويرسمون وينفذون البناء فى وقت  
واحد فى كتلة صخرية صماء لا ترى أعماقها على الطبيعة ، دون ان تكون  
لديهم آلات الحفر التي تعمل بالضغط والكهربا أو الاشعة التي تخترق  
المكان وتكشف عن طبقاته الجيولوجية وطبيعة تكوينه .. لاشئ سوى  
الفتوس والمزاميل والمقاطف .. !

هؤلاء هم الذين نرفعهم الآن فوق الجبل .. !

\*\*\*

وقد بدأت قصة انقاذ أبو سمبل منذ اللحظة الأولى للتفكير الجدى  
فى مشروع السد ..

كان من الواضح ان السد يهدد ٢٣ اثرا هاما فى المنطقة بالغرق ..  
وكان هناك بصيص من الأمل .. فهذه الآثار كلها مبنية من الحجر  
فلماذا لا نرفعها من مكانها ونقيمها فى مكان آخر ٩٠٠  
وهذا ما حدث بالفعل ..

وبدأت العملية فى عام ١٩٦٠ بانقاذ معابد تافاه ، ودابود وقرطاس  
ثم الدكا ودندور والمحرقه فى ٦٢ وكلايشة فى ٦٣ وقد أقيم من جديد  
الى جوار السد مباشرة ومعبد عمدا الهائل الذى نقل فى ٦٤ على عجلات  
تجرى فوق قضبان بسرعة ١٠ سم كل ٨ ساعات !٠٠

وفى ٦٥ حل الدور على معبد الدر واللوحات الصخرية فى معبدى  
جرف حسين وابى عودة .

كان المعبد يفك الى قطع صغيرة مرقمة تنقل الى مكانه الجديد فى  
اعلا ثم يعاد تركيبها هناك .

أما أبو سمبل فكان قصة أخرى .. لأنه كان منحوتا فى الجبل .

وتتابعت المشاريع المختلفة لانقاذه .. مشروع ايطالى بوضع المعبدین  
فى صندوقين هائلين .. ومشروع فرنسى ببناء سد يحيط بالمعبدین ..  
ومشاريع فردية مثل مشروع ماكوينى .. وأخيرا المشروع السويدى الذى  
أقر فى النهاية .



واجتمعت لجنة خبراء برئاسة البروفسور ميخالوفسكى ، أستاذ  
الآثار المصرية بجامعة وارسو ، وعضوية أنور شكرى الأثرى المقيم ، وقررت  
ألا يزيد تقسيم المعبدین عن ١٢ الف قطعة يتراوح وزن كل منها بين  
٢٠ و ٣٠ طنا .

وبدأ العمل فى تخليص المعبد .. فنحنت محاريث الصلب فى  
الجبل لتصل الى سقف المعبد حتى وصلت الى صف القروود التى تهلل  
للشمس كل صباح ، وفى أغسطس ٦٥ توقفت المحاريث لتبدأ المناشير  
الكهربائية الدقيقة عملها .

وكانت العملية دقيقة للغاية ..

فعندما تم تخليص المعبد نهائيا من الجبل ، وأصبح يقف وحده لأول  
مرة فى التاريخ ، وضع العالم كله يده على قلبه .. فقد كان الخوف ان



يتمدد المعبد وينتفخ بعد أن تخلص لأول مرة من ضغط الجبل .. أو يحدث العكس فينكمش وفي كلتا الحالتين ينهار .

ولكن العملية الوقائية التي اتخذها الخبراء ، وهي ربط المعبد من الداخل والخارج بضغط الهواء على سقالات خشبية وحديدية ، أدت الى ثبات المعبد على حجمه الاصلى دون ادنى تغيير الا من بعض الشروخ الحائطية والحالات الطفيفة التي انفصلت فيها الرسوم عن الحائط وكلها حالات عولجت بسهولة .

وكانت المعامل الكيماوية تدرس جميع أنواع الصخور التي يتكون منها المعبد لمعرفة مدى تحملها لعمليات القطع وكيفية تقويتها .

وفي سبتمبر ١٩٦٥ انتهى تقطيع المعبدين ورفعهما .

وعندما تقرأ هذا الكلام يكون قد بدأ العمل فى تركيب المعبد الصغير .. ويستغرق ثمانية شهور وفى أغسطس ٦٦ يبدأ تركيب المعبد الكبير .. ويستغرق تركيبه ١٤ شهرا .

ولا بد ان تكون قطع المعبدين فى موقعهما الجديد فى اول أغسطس سنة ١٩٦٦ قبل ان تصل مياه الفيضان فى سبتمبر الى منسوب ١٣٣ ثم يقفز فجأة فى ديسمبر الى ١٤٤ فتبتلع المياه الموقع القديم .. ومع السد الصغير الذى انتهوا من بنائه قبل مجيئنا بشهر وتكلف ٢ مليون جنيه .. ليذوب مع فيضان ٦٦ .. !

\*\*\*

ان ١٢٠٠ عامل مصرى مع ١٠٠ موظف ومهندس وخير اجنبى من بلجيكا وفرنسا والسويد والمانيا الغربية وايطاليا ، يعملون ثلاث ورديات فى اليوم ، ولا زالت امامهم عدة سنوات اخرى قبل ان ينتهى العمل الكبير .

وتضم الشركات الاتحادية شركة مصرية تشترك فى الانقاذ بفرع منها ، والفرع الآخر يقيم المدينة الصغيرة الاثيقة فوق جبل الشيطان .

\*\*\*

والمدينة الصغيرة تغرق نفسها فى العمل كى تنسى وحدتها ..

تنس الطاولة هو التسلية الوحيدة .. الراديو لا تتميزه جيدا .. السينما نادرة .. والافلام لا يراها سوى الخبراء الاجانب وبعض الموظفين

والمهندسين المصريين ، بينما يقبع ١٢٠٠ عامل مصرى فى منازلهم ..  
غالبيتهم لا تزال تقيم فى الخيام حتى الآن فى انتظار انتهاء المباني .

والجو الذى يسود أبو سمبل جو غريب جدا .. تشعر بغرابته  
عندما تكون قادما من السد .

الهدوء .. علاقات محددة .. عمل سينتهى بسرعة ليعود كل انسان  
الى حاله .. الاجانب اجانب بالفعل .. أروعهم السويديون . ويأتى الالمان  
فى آخر القائمة .

وفى الجمعية التعاونية التى تزدهم بمختلف البضائع ولا ينقصها  
شيء شاهدنا فتاة المانية جميلة تعنف البائع بعنجهية امرات القرن  
الرابع عشر .

وقال لنا المهندس أمير أبو الوفا .. ان الالمان هكذا دائما .. وروى  
لنا كيف انتقم العمال المصريون منهم عندما قطعت بلادنا علاقاتها  
الدبلوماسية مع المانيا الغربية ، فأخذ العمال سيارات المرسيديس الكبيرة  
وظافوا بالبلدة الصغيرة يهتفون بحياة ناصر ويلوحون بقبضاتهم فى وجه  
الالمان ! ..

\*\*\*

وعندما تتحرك بك الدكة - وسيلة المواصلات الوحيدة الى أبو  
سمبل - لتعود بك الى السد لا تملك الا ان تتنهد فى ارتياح وشاطئ  
جبل الشيطان يتراجع أمامك .

كأنما تغادر دنيا الموت ، وتعود الى الحياة من جديد .. !

- ٢ -

وفى رحلة العودة كما فى رحلة المجرى ، تمر بابواب ونوافذ القرى  
النوبية القديمة التى تحلق فى صمت أسود رهيب .

وتتذكر رمسيس الذى كان يقبض على رعوس الاسرى النوبيين ،  
والنوبيين الذين يجرون أمام عربته الحربية .

وتتذكر آلاف المعارك الدامية التى دارت حول ابريم والدكة  
وغيرهما .

فمنذ غزا سنفرو ، آخر ملوك الأسرة الثالثة ، بلاد النوبة وعاد  
بسبعة آلاف أسير نوبى و ١٠٠٠٠٠ رأس من الماشية ، وصفحات تاريخ  
النوبة تكتب بالدم .

منجم للذهب والرجال .. هكذا كانت النوبة دائما .

\*\*\*

وفى هذه القرى الصغيرة كان النساء ينتظرن فى رعب ، سنوات  
طوال ، الرجال الذين سافروا الى القاهرة والاسكندرية ليعملوا خدما  
وبوابين ولم يعودوا ، وكان الاهالى يتوجسون رعبا من الفيضان والتحاريق  
والذئاب التى تخطف الاطفال والعقارب ، ولم يحدث أبدا أن شاهدوا  
سيارة ولم يروا الكهربا الا فى السفن التى كانت تعبر قراهم ليلا ،  
وكانت هذه السفن - التى تأتى مرة كل أسبوع - هى نافذتهم الوحيدة  
على العالم - يجرون الى الشاطئ لينتظروها وينتظروا معها الاخبار  
والرسائل .. والرجال الذين لا يأتون .

ان نصف ساعة بالأوتوبيس من اسوان تكفى الآن لتنقلك الى أقصى  
أطراف النوبة . الجديدة .

وتكفى ساعة ونصف الآن كى يدرع النوبى كل قرى النوبة بالطول  
وبالعرض .

فى ١٨ اكتوبر ١٩٦٣ صعد ٥٧ ألفا من اهالى النوبة شمالا فى  
الوادى الأخضر الى قراهم الجديدة .. حاملين معهم أكياسا من تراب الوطن  
القديم وحجارته .

\*\*\*

وليست هذه هى المرة الأولى التى تؤثر فيها مشروعات النيل على  
حياة النوبيين .

ان المتقدمين منهم فى السن لا يزالون يحكون عن خزان اسوان ،  
عندما طردتهم المياه من مساكنهم وجعلتهم يصعدون الى أعلى فى النهر ،  
أو يهربون الى أقصى الشمال .

فى تلك الايام كانوا حقا ضحايا النيل .. فلم يلقوا أية عناية  
وكانت التعويضات التى صرفت لهم هزيلة تماما .

وكانت المأساة تتكرر فى كل تلبية .

ولعلها أول مرة في حياتهم تلك التي وقف فيها الرئيس جمال عبد الناصر يتكلم اليهم في سنة ١٩٦٠ ويقول لهم: ان المصريين والنوبيين أسرة واحدة وان العزلة التي عاش فيها النوبيون منذ القدم قد آن لها أن تنتهي .

واختار النوبيون منطقة كوم أمبو شمال اسوان لتقام فيها قراهم الجديدة بنفس الوضع الجغرافي القديم ، ونفس الاسماء .  
وانقضت مياه السد العالي على الاربعين قرية القديمة تفرقها لتصنع منها أكبر بحيرة صناعية في العالم مساحتها ٤٠٠٠ كيلو متر مربع .  
وعرضها ثمانية كيلو مترات وطولها ٥٠٠ كيلو متر .

\*\*\*

وفي بلانة الجديدة شربنا الشاي النوبى بالنعناع وتجولنا في المدرسة والمستشفى الصغير الحديث ، والمشغل حيث يعلمون الاطفال الصناعات اليدوية والسجاد ، ويعطونهم أجر ما يصنعونه ، وعلى مشارف القرية حيث تمتد الحقول الخضراء لأول مرة منذ آلاف السنين .

ورأينا الجمعية التعاونية ، ودكاكين البيع ، والمخبز ومكتب البريد والتلغراف والتموين ، والبنك .

ونحن نذكر مثل هذه الأشياء لأن القرى القديمة لم تكن تعرفها على الاطلاق .

فلم يكن في النوبة كلها غير مستشفى عينية . ومركب عائمة بها وحدة صحية ترسو على شاطئ كل منطقة شهرا . فتعود الناس على العلاج بالاعشاب . وتصوروا حالة مصران أعور في «ادندان» . وبينها وبين عينية ١٢٠ كيلو ، أى يومين في سفينة أو ثلاثة على حمار .

وفي النادى التقينا بالرجال .

كانوا يقرءون ويستمعون الى الراديو . فى جلايبهم الناصعة البيضاء ووجوههم السمراء النظيفة . لم يكن بينهم شاب واحد ، فقد كانوا جميعا من المسنين ، أما الشباب فليسوا فى القاهرة . انهم اما فى الحقول المجاورة أو المصانع أو فى السد ، فلكل أسرة خمسة أفدنة ومنزل وجاموسة . بينما تتضمن الخطة الخمسية لتطوير اسوان تأسيس خمسة مصانع فى منطقة كوم أمبو خصيصا للنوبيين لامطائهم فرصة العمل . مصنع للسكر وآخر لحفظ الخضروات وثالث لتجفيف البلح وتعبئته . ورابع للالبان والبسترة .

كنا نجلس في حلقة واسعة من ذوى الجلابيب البيضاء ..

وجاء ذكر النيل ..

ولم في العيون وميض رقيق شارد ..

لقد كان الشاب عندما يتزوج يذهب الى النهر وحيدا ، يحمل سيفاً  
وكراباجاً ويربطه بسكين ذى حدين على ذراعه الايسر منعاً للحسد ،  
ويغرس سيفه على الشاطئ حارساً له ريثما يستحم في النيل .

أما الآن فهو يكتفى في مناسبة الزواج بسيف من الخشب .. فقد  
ذهب النيل .

وفي قرى النوبة الجديدة تتردد في الليل النى ينتظر الكهرباء من  
السد .. أغنية نوبية تقول :

ارتفع بمياهاك الى حد البيوت ..

واضرب بها العتبات في رفق ..

ولتتعانق انت وهى معا ..

ولتناجها .. وتهمس في أذنها وحدهك . !

فقد تركناها .. لك ..

بلدنا .. يا نيل ..

ورحلنا .. نحن ..

ولا تملك الا ان تشعر بالاسى ، وهو اسى يختفى سراعا عندما ترى  
الرجال قادمين من السد حيث يعملون ، في زياراتهم الاسبوعية لزوجاتهم  
وأولادهم .

\*\*\*

ان كتاباً صغيراً صدر في عام ١٩٣٣ باسم «صور من حياة النوبيين»  
لؤلف اسمه محمد كامل حته ، يبدو من صورته التى تنصدر الكتاب ،  
انه نوبى ، يبدأ بهذه العبارة :

« للفطرة روعتها وجمالها .. فمن العقوق اذا ان نهمل هذه الناحية  
من حياة النوبيين . فهناك تجد الفطرة تطبع الحياة بطابع البساطة والجمال  
وتصبغها بالصبغة الفنية التى تمثل لنا الانسانية في أطوارها الأولى .. »

وللزراعة أساليبها الفطرية .. وطعامهم فطري بحث .. فهم يأكلون  
ما تنبت الارض ..

« .. والمرأة النوبية مثل نادر في الحياة الزوجية ، فهي وفيه  
لزوجها الى حد بعيد .. فقد تحرم على نفسها لذائد الحياة طيلة مدة  
غيابه ، وتتحاشى حتى أكل اللحم او الطعام غير العادي ، حتى اذا عاد  
اليها بعد سنين استقبلته باسمه راضية ، وادت له حقوق الزوجية دون  
تبرم أو استياء ! .. »

بل ان مؤلفا آخر هو الدكتور محمد محمود الصياد كتب في عام  
١٩٦٢ ، كتابا بعنوان : « النيل الخالد » أصدرته وزارة الثقافة ، وقال  
فيه عن بلاد النوبة :

« .. الارض فقيرة وكذلك الناس ، السماء شحيحة لا تجود والارض  
مجدبة لا تغل .. ولكن حسب القوم قناعتهم ، والقناعة كنز لا يفنى !  
وكفاهم أمانتهم التي اشتهروا بها فأكسبتهم الثقة والاحترام ، انهم أغنياء  
بجلدهم وكفاحهم في سبيل العيش ، يضربون في الارض سعيا وراءه .. »  
واليك كيف كان يعيش هؤلاء الاغنياء بجلدهم وكفاحهم في سبيل  
العيش .

فقبل عملية التهجير مباشرة قامت وزارة الشؤون باجراء مجموعة  
من الاحصاءات على قرى النوبة القديمة ، لعلها الاولى من نوعها ..

وكشفت هذه الاحصاءات عن حقائق غريبة ..

ان عدد النوبيين كلهم ٤٨ ألف فرد .. الثلث رجال والثلثين أناث  
.. أى ان الاناث ضعف الرجال .

وال ٣٠ الف انثى منهن ١٨٤٩ واحدة لم يتزوجن ابدا ، و ٦٦١٤  
أرملة هذا غير المنتظرات .

وفي كشف لتعداد سن المقيمين .. يبدأ عدد الذكور والاناث  
متساويا . ( ففي سن العشرة أعوام الذكور ٢٦١١ والاناث ٢٧٩١ ) ثم  
تقترب النسبة من النصف في الخامسة عشرة ( ١٣٦٨ ذكرا و ٢١٧١ )  
وتبدأ الفرجة في الاتساع حتى تصل الى أكثر من الضعف ( في الثلاثين  
الذكور ١٥٤٦ والاناث ٤٢٠٥ ) !

فقد هاجر الرجال ..

ان عدد المهاجرين يصل الى ١٥٥٩٧ رجلا ويبقى في القرى عشرة  
آلاف رجل . ولا تخلو أسرة من مهاجر .

وعندما تبلغ المرأة سن الخمسين تتغير النسبة : ١٢٢٠ رجلا  
و ٢٧٦٠ انثى . فقد بدأ الرجال يعوضون . . في الخمسين . !

ولكن النسبة تتغير من جديد بعد عشر سنوات . فتتسع الهوة من  
جديد بين عدد الرجال وعدد النساء . . لتعود الى الضعف .

فما الذي حدث ؟

هل السبب هو زيادة عدد الارامل . . أو أن الرجال يهاجرون من  
جديد ؟

هل يهاجر ذو الخمسين عاما من جديد . . أو أنه يموت بعد رحلة  
الشتاء والصيف ؟

\*\*\*

وتصوروا معنا . . ٤٨ ألف رجل هذا هو توزيعهم المهني . .

٤٥١

مهن فنية وادارية ودينية

٩٨٦

تجارة وتقل وصناعات انتاجية

٩٠٩٢

زراعة

٤

مناجم

٢٥٣١٠ ١٠٠٠

لامهنة

\*\*\*

لقد فقد النوبيون النيل . . والسمك . . والنخيل . .

هذا حقيقي . . ولكنهم كسبوا حياة جديدة . .

وفقدوا حياتهم الفطرية . . أو سيفقدونها . . وسيفقدون قناعتهم . .

هذا أيضا حقيقي . . فليسوف تندثر حياتهم القبلية . .

وتظهر لهم تطلعات جديدة . . فمن رأى عالم البشر يموج من حوله بكل

جديد ، وبكل الطيبات ، لن يقنع بالتراب والماء !

\*\*\*

وقد قضينا في ابريم ليلة لا تنسى . .

كنا نتناول عشاءنا في منزل العمدة فوزى مراد . عندما أقبل رجل قريب ، قائم لا يتكلم ولكنه جلس صامتا ، واحضروا له عشاء .. لم يكن أحد يعرفه ولكنهم مع ذلك اطعموه . وقدموا له الشاي والسجائر .

ولم يسأله أحد عن اسمه .. وقال انه من قرية بعيدة تدعى « الجتينة والشباك » وانه كان في السوق ورجع ماشيا فضل طريقه . وعندما فرغ طعامه أعدوا له مكانا ليبيت فيه الى الصباح .. وهكذا لم يفقد النوبيون ارواح صفاتهم الفطرية .. التعاون والامانة وكرم الضيافة .

وقد كان في كل قرية قديمة دار صغيرة للضياف ، من المسافرين والتجار الرحل على الجمال ، يأكلون فيها وينامون ، دون أن يسألهم أحد عن أسمائهم أو القبائل التي ينتمون اليها أو القرى التي جاءوا منها .. وكانت القرية كما تساهم في اطعامهم .

ولكن القرى الجديدة ليس بها دور للضياف . فقد غفل المهندسون الذين بنوها عن هذه الدور . مما احزن النوبيون في البداية .. ولكنهم الآن لم يعودوا يهتمون بالأمر .. فليس هناك مسافرون أو اغراب كثيرون في المنطقة ، والرجل منهم يستطيع أن يسافر الى القرى الأخرى ليزورها ثم يعود في نفس اليوم .. أما اذا ظهر قريب أو مسافر فانه يتوجه مباشرة الى منزل العمدة أو أى منزل في القرية ليبيت ليلته .

\*\*\*

وحدثنا أهالى ابريم عن معبد عبد الوهاب الجريدلى ..

والجريدلى قنان داعبه حلم رؤية السد والتعبير عنه سنوات عديدة وعندما تمكن اخيرا من الذهاب الى هناك .. غدر به النيل وابتلع جسده ولوحاته وريشته .

واحضر لنا رجل عجوز صورة كان الجريدلى قد رسمها له .. صورة حية نابضة كلها اصرار وتفاؤل .. وكانت معنا مجلة الكواكب وبها مقال عن الجريدلى للاستاذ محمود أمين العالم .. ومع المقال عدة صور له . وتخاطف الرجال المجلة ، وانطلقوا يتحدثون في صوت واحد وهم يتمعنون فى الصور .. نعم . هذه هى المدرسة .. والمأذنة ..



ودار الضيوف .. وهذا هو عم محمود ... ومعزات الخالة صابحة ..  
وهذه ابريم التي أحبها عبد الوهاب وقضى بها آخر أيامه .

وقال لنا شاب صغير « لقد كنت معه دائما ، وكان يعمل طول  
اليوم في الشمس الحارة يرسم ويسجل ويعيش معنا ، ولم تكن معه  
نقود كثيرة ولكنه لم يكن يحتاج الى شيء » ، لقد فتحنا له بيوتنا وفتح  
لنا قلبه .. » .

وعرفنا منهم كيف قضى الجريدى آخر أيامه .. فعندما بدأت  
الهجرة الكبرى لاهالى النوبة من قراهم القديمة الى أسوان ومنها الى  
قراهم الجديدة ، رافقهم الفنان وشاركهم كل شيء .. حزم الامتعة ،  
وترقيمها وارسالها الى البواخر .. وكان يركب البواخر التازلة الى  
أسوان ، ويرجع مع البواخر الصاعدة الى النوبة وهو يرسم طول  
الوقت بحماس من يعلم ان أيامه أصبحت معدودة .

وفي احدى هذه المرات - وفي طريقه الى أسوان - كان يجلس  
فوق السطح يرسم .. وحينما حان موعد الغداء .. ولم يظهر ليتناوله  
مع أصدقائه .. ذهب أحدهم يبحث عنه .. وفوق سطح المركب وجدوا  
أوراقه ولوحته مشدودة الى حامل كان يرسم فيها .. لوحة ناقصة  
لم تتم ، ولا أثر لعبد الوهاب .

وفشلت كل المحاولات فى العثور على جثته .. لقد غاص جسده  
فى نفس المكان الذى طالما حلم به ، وأصبح جزءا من جسم السد .

ومن الغريب ان عبد الوهاب كاد ان يموت سامة تحوِيل  
النهر .

فقد كان يقف على حجر عال أمام اقناة التحوِيل يسجل بألة  
التصوير الحدث العظيم وفجأة اندفعت المياه الهادرة وحطمت كل  
شيء أمامها واطاحت بالحجر الذى كان يقف عليه الفنان .. ولكنه  
أنقذ فى آخر لحظة .

وعاش بضعة أشهر أخرى ليموت فى نفس النهر .

\*\*\*

وكانت الحلقة التى تحيط بمنزل العمدة قد بدأت تتسع .. وفى  
جانب منها تجمعت النساء بلا خجل مفتعل .. وبدأ الشاعر النبوى  
يفنى أغنية ساذجة رائعة ..

تركنا ابريم البعيدة  
أحسن بلد تنتج البلح  
حيث شرق النخيل بواسطة مياه السد  
واتينا الى ابريم الجديدة  
لاجل عيون السد العالي  
ولاجل عيون مصر وخاطر جمال  
ذهب عبد الناصر الى روسيا  
واحضر الرجال والآلات  
وذهب معه المشير عبد الحكيم عامر  
واحضر السلاح  
والروس الحمر الوجوه في أسوان  
في الشمس مع ابنائنا يبثون السد العالي  
وابناؤنا معهم  
والسلاح مع ابنائنا  
يحاربون به الاستعمار واسرائيل والانجليز . !

# شہادت سیمیر





دخلت الناظرة الفصل .. ووقف التلاميذ احتراماً .. وتراجعت  
المدرسة في أدب وهي تتطلع الى الناظرة في تساؤل .. وأجابت الناظرة  
عينها في أرجاء الفصل ثم توقفت عند أحد الأركان .

وتسمرت عينها على عدد من التلاميذ في أربع أدراج متتالية ..  
ثم تحركت عينها وطاقت بأرجاء الفصل الذي احتشد بالبنات .

وعادت عينا الناظرة الى الصبية في الركن ثم تكلمت :

— أنا مش قلت مفيش ولد يقعد جنب ولد ؟ لازم كل ولد يقعد  
جنب بنت .. مفيش ولاد ولا بنات يقعدوا وحدهم .

وبدأت جلبة في الفصل .. الأولاد يأخذون كتبهم وحقائبهم ينتشرون  
في أرجاء الفصل .. بحيث يضم كل درج ولداً وبنتاً .

\*\*\*

حدث هذا في قلب مدينة أسوان العتيقة . ! وفي أولى مدارس  
البنات الثانوية بها ١٠٠

\*\*\*

وقالت السيدة زينب حموده .. ناظرة مدرسة أسوان الثانوية  
للبنات .. انها تريد أن تتحدث مع مجلس الفصل المنتخب .

ثلاث طالبات وطالب انتخبهم الفصل في اليوم الأول للعام الدراسي  
الجديد .

وفي مكتب « الست الناظرة » دار حديث رائع اشترك فيه نواب  
الطلبة والمدرسات واثنتان من الآباء عضوان في مجلس الآباء .

وكانت الكلمات التي ترددت في هذه المناقشة غريبة حقاً ..

على الأقل بالنسبة اليها ، نحن القادمون من العاصمة ١٠٠

قالت « الست الناظرة » في ايمان عفيق : أن سيادة الحياة  
الديموقراطية داخل المدرسة هو الضمان الاساسي لسيادة الديموقراطية

فى البلاد كلها . . فلا أحد يستطيع بعد ذلك أن يقف فى وجه الديموقراطية  
أو يتراجع عنها .

\*\*\*

ان التجربة التعليمية الجديدة هى الخطوة الاولى فى مشروع  
التخطيط الاقليمى لأسوان الذى يعمل فيه الخبراء العرب بمركز تنمية  
الموارد البشرية .

وكانت المدرسة الثانوية للبنات هى التى اختيرت للتجربة  
الجديدة . . وتبدأ التجربة فى فصول الصف الاول من الأعدادى  
والثانوى ، على أن يلحق بهذه الفصول عدد من البنين روعى فى اختيارهم  
قواعد معينة أهمها أن يكونوا من أبناء أسوان .

والتجربة ليست تجربة اختلاط بين الجنسين وحسب . .

فهى تطبيق مناهج جديدة للدراسة هى نفس المناهج القديمة  
بعد ان قام الفنيون واساتذة التربية بحذف المكرر منها واختصار  
ساعات بعض الدروس الاسبوعية فى بعض المواد وتوفير الوقت للهدف  
الاساسى من التجربة وهو ربط التعليم بالبيئة .

فتحاول المناهج الجديدة اقامة صلة بين ما يحصل عليه التلميذ  
فى المدرسة من مواد وبين البيئة من حوله ، وذلك عن طريق ما يعرف  
« بالمحاور » ومحاور الانتاج هى السد العالى والمشروعات الصناعية  
والزراعة والسياحة ، فمن خلال التعرف على السد العالى مثلا  
يستخلص التلاميذ النظريات الهندسية واللوغاريتمات من خلال حساب  
مكعبات الاحجار والرمال ، ومسائل الحساب من العمليات المختلفة ،  
والانشاء والتربية الوطنية من التطور السياسى لمعركة السد . .  
وهكذا .

وعند تدريس الرياضة مثلا لن تصبح المسألة هى مجرد تحفيظ  
« التلاميذ للقواعد الرياضية » وانما يتلقون أيضا - وبصورة تلقائية -  
قواعد التفكير المنظم .

ويأخذ المناهج الجديد بنظام التوجيه لاول مرة ، بحيث تدرس  
ميول كل تلميذ واتجاهاته أولا بأول حتى يسهل توجيهه الى فرع  
الدراسة الصحيح الذى يصلح له ، وحتى يمكن فى المدى البعيد تلبية  
احتياجات المشروعات المختلفة فى المنطقة من القوى البشرية التى تحتاج  
اليها ، سواء فى الزراعة أو الصناعة أو الفنادق .

ولا تقف التجربة الجديدة عند حدود الصغار ..

فهي تتضمن أيضا تعليم الكبار الذين تخلفوا من التعليم بين سن ١٠ و ٤٠ سنة ، والتلاميذ الذين تركوا الدراسة في المرحلة الابتدائية، فتقام لهؤلاء مراكز تدريبهم على الأعمال التي تحتاج إليها مشروعات البيئة في اسوان باختلاف انواعها .

وليس هذا كله الا مركزا واحدا من المراكز الستة للتنمية في اسوان ، التي ستكون نواة لمعهد أو جامعة تكنولوجية في المستقبل ، والمراكز الخمسة الأخرى تغطي مجالات الصناعة والزراعة والثروة المائية والسياحية .

\*\*\*

ومدرسة البنات الثانوية التي تضم ٥٥ ولدا وبناتا .. ثلثهم اولاد .. ما زال اسمها مدرسة البنات ١٠٠

وقد احتج الاولاد على هذا الاسم أكثر من مرة ١٠٠!

بل حدث عند تحويل احد التلاميذ من هذه المدرسة الى مدرسة اخرى ، ان رفضت الأخيرة قبوله لانها لم تتصور فكرة وجوده في مدرسة بنات ١٠٠

انها أول مدرسة بنات في القطر تقبل اولادا بها ١٠٠ !

والغريب ان فكرة الاختلاط لم تجد اعتراضا عند بعض العائلات الأسوانية الصميمة بل ان بعضها تناضل الآن من أجل الحاق اولادها وبناتها بهذه المدرسة بالذات .

وقد تحدثنا الى احد هؤلاء الآباء في حجرة الناظرة واسمه السيد القرشي ، وهو عضو نشط في مجلس الآباء ، وموظف قديم على المعاش، وله في المدرسة بنتان واحدة في السادسة عشرة والثانية في الثامنة عشرة .. ولم يكن يشعر بأي غضاضة من جلوسهما بجوار اولاد نبي سنهما .

وقد شهدناهم جميعا في الفناء .. الاولاد في جانب والبنات في جانب آخر .. وقالت لنا زينب حمودة : لا زالوا يهابون التجربة .. ولكنهم سيألفونها بعد قليل .

وعندما هبطنا الى الفناء هشرنا في صالة جانبية على مائدة لتنس

الطاولة .. في احد طرفيها فتاة سمراء جميلة .. وفي الطرف الآخر  
صبي .. وحولهما التف حشد من التلاميذ .. من الجنسين .

\*\*\*

وفي الايام الاولى لنا بالمدينة ، عندما صدمتنا بحرارتها القائظة  
وجمودها وكآبتها .. كنا نتساءل .. .

لقد مضت سنوات ست منذ بدأت اول ضربة في الصخر ..  
ومنذ هدرت اول كراكة في الجبل . وبعد سنوات قليلة ستهدأ هذه  
الضجة وتنسحب الآلات والرجال الى مكان آخر .. فهل ضاعت فرصة  
العمر من أسوان كي تتغير !؟

وقد وجدنا الاجابة بعد قليل :

فالانسان يستغرق وقتا طويلا ليتغير .. ولكنه يتغير بالتأكيد  
ما دام وجه الارض المتحجر يلين وينبت المصانع والكهربا .

\*\*\*

وفي ذلك المساء بعينه كنا نقوم بجولة أخيرة في السوق العتيق ..  
وجعلنا نتشمم الهواء في لهفة .. فلاول مرة نتنفس في الهواء  
رائحة الخريف النقية .. دون غبار أو حرارة ..

وكانت المدينة مزدحمة .. اكثر من المعتاد ..

وفي كل مكان كانت جموع الناس من الجنسين تروح وتجيء ،  
تشتري وتمشي على النيل ، تستنشق نسيمات سبتمبر .

والفنادق التي اغلقت ابوابها طيلة فترة الصيف ، فتحتها ..

والكازينوهات التي كانت خالية تماما .. تمتلئ من جديد ..  
بالمدرسين والموظفين .. ورجال السد .

كانت الحياة تنبض بقوة اكثر ..

كانما تحشد - بعد فترة راحة ولعلها كانت فترة تربص - كل  
قواها من جديد .. لتواصل السير .



## فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	أصعب كتاب فى العالم
٩	السوق
١٧	الطريق
٢٥	معركة يومية وسؤال بلا اجابة
٣٥	السد بلدى
٥٣	الاله القديم
٦٧	أبناء الشمال
٨٧	مصائب ناصر
٩٩	بطل السد
١١١	الصعود
١٢٩	نسمات سبتمبر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر  
بالمشاهرة



دار الكاتب العربي للطباعة والنشر  
بالمطاهرة

العدد ٢٠

العدد ٢٠١  
١٠ يناير سنة ١٩٦٧